أيام لا تمر

رواية

ديـوان العـرب للنشـر والتـوزيع

عنـــوان الكتاب: أيام لا تمر
اســـم المـؤلف: د. زينب حلبي
التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيـــداع: 16353 / 2024

الترقيـم الدولي: 4 - 988 - 998 - 977 – 978

التدقيـق اللغوي: د. هبـة ماردين
تـصـميـم الغلاف: شيمـاء عشـري
التنسيق الداخلي: محمد وجـيـه
رقـــم الطـبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد
تليفون: 00201030502390
dewanalarabegypt@gmail.com

أيام لا تمر

رواية

د. زينب حلبي

ديوان العرب للنشر والتوزيع

الإهداء

أهدي روايتي أيام لا تمر إلى كل النفوس الحائرة والقلوب المعذبة، التي قضت جُل سنوات حياتها سجينة أفكار وأوهام لا وجود لها، مَن يقفون على أعتاب ماضٍ انتهى بلا رجعة، ولا يدركون أن الزمن لا يتوقف ولابد أن يتمسكوا بالأمل لأنه وحده قارب النجاة.

د. زينب حلبي

****

بناء الوعي

لقد نشأتُ في نوعٍ من العُزلة الاجتماعية؛ بسبب نَظرة الشَماتة التي يُقابَل بها ابن القَس في القرية. المُفتَرَض به أن يكون أفضل من الآخرين، وكلما لَمْ يكن كذلك، كان ذلك مَدعاة لسرورهم. الأطفال هم الأكثر قَسوة، وهم لا يَعتَبِرون ابن القس واحداً منهم. إنّه مُختلف؛ هناك الكثير من الأشياء التي تُخفى عنه، حتى الكبار يَلتَزمون الحَذَر عند الكلام أمامه، ويُفَضّلون الصَمت عندما يأتي. لطالما لجأتُ إلى استخدام طُرُق سرية للذهاب إلى المدرسة، لتفادي صبيان المُزارعين الذين كانوا يطاردونني ويضربونني بكل ما أوتوا من قوة.

(من أقوال الفيلسوف دورنمات)

يغمض عينيه فيقرأ الفاتحة والمعوذتين وسورة الإخلاص، ولكن يجافيه النوم، يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وتبدأ الأفكار تتداعى عليه، واحدة تلو الأخرى يتذكّر في طفولته حين جلس مع بعض جيرانه الصغار حول إحدى جاراتهم العجوز على درج المنزل الذي كان يعيش فيه مع أسرته، وبدأت تقصّ عليهم قصة حدثت بالفعل، تذكَّر حين كاد قلبه أن يقفز من صدره، وأنفاسه تتلاحق، ويتصبب عرقاً كغارقٍ في بئرٍ، يحاول الخروج منها ولا يستطع حيث قالت الجارة وتدعى أم الخير:

إنّها في طفولتها في الريف رأت _وكل أبناء القرية_ أحد اللصوص يركض سريعاً وخلفه الناس للقصاص منه، فتسلق نخلة عالية، واختل توازنه، فسقط سريعاً مضرجاً في دمائه، ومات في الحال.

فتم استدعاء طبيب القرية، والشرطة وقام الطبيب بتشريح الجثة أمام أعين الناس في الحقل، وقد رأت العجوز في طفولتها كيف تم التشريح بدقة، وهي ذكرى لا تُنسى.

وحكت لهم كيف فتح الطبيب بطن المتوفى، وأخرج أعضاءه، وكيف حطم عظام الرأس بالمطرقة ليُخرج المخ.

والأطفال يرتعدون خوفاً حولها. ظلّ خيال تلك القصة يرسخ في عقل الصغير رغم مرور الأعوام، ورغم بلوغه سن الثامنة عشرة، واستعداده لاختبارات الثانوية العامة، ولكن الخوف الذي شعر به حينها ظلّ ملازماً له، فقد كان يتخيل كل ما كانت تقوله بدقة، وكأنّه يرى معها ما رأت.

كان ابني وحيد طالباً مجتهداً، ولكنّه لا يدري لمَ ينفض من حوله الأصدقاء، تراوده رغبة في الجلوس وحده، والتفكير المتعمق في كل ما يحدث بالقرب منه، لا يجرؤ على أن يحكي لي عن شيءٍ مما تعرض له أثناء طفولته من تآمُر الأولاد عليه، لمجرد أنه كان طفلاً هادئاً، لا يندمج بسهولة مع أقرانه في المدرسة، حتى إنّني شككت في إصابته بالرهاب الاجتماعي. كان كالبحر الهادئ، ما إن تقترب منه إلا وتجده يخفي في أعماقه العجائب.

وحتى مع جيرانه ممن هم في مثل سنه، لم تكن تربطه بهم سوى علاقة سطحية، لا يكاد يكلمهم إلا قليلاً، لم يشغله الأمر في الصغر، حيث كان يحب الجلوس وحده ليلعب بالألعاب الإلكترونية على هاتف والده المحمول، ولكن بعد أن تقدم في سنوات الدراسة بدأ يشعر بالوحدة، وبحاجته لاستشارة زملائه في أمور تتعلق بالدراسة، مثل اختيار المعلمين الأكفاء في المرحلة الثانوية والدروس الخصوصية وما شابه، ثمّ تغلب على شعوره بالانعزال هذا، وحادثهم في البداية كزملاء دون صداقة، ولم تتحول الزمالة فيما بعد إلى صداقة أبداً.

واستمرّ هكذا يشغل أوقاته أثناء الإجازة الصيفية في اللعب، والقراءة على الحاسوب إلى أن ظهرت نتيجة الثانوية العامة، والتحق وحيد بكلية الطب البشري.

فرحنا جميعاً بذلك، وخاصة والده - ما كنا ندري ما ينتظرنا معه من معاناة- بينما وحيد لم تظهر على قسماته علامات السعادة المتوقعة. يبدو أنّه لم يكن يفكر فيما يريد أن يصبح مستقبلاً.

حكى لي ذات مرة هذا الموقف في بداية دراستة بالجامعة:

أثناء تواجده في أحد السكاشن، كان قد نسي المعطف الأبيض الضروري لدخوله السكشن، فارتبك وظهر عليه الضيق أثناء وقوفه أمام المشرحة، بينما يدخل زملاؤه إلى (السكشن) فلاحظت إحدى زميلاته ارتباكه، فاقتربت منه وسألته:

_ ماذا بك؟

_ فتعرق وجهه ويداه وقال لها: لقد نسيت المعطف.

_ انتظر ثواني.

فخرجت مسرعة، واختفت دقيقتين، ثمّ عادت له بمعطف جديد وقالت له:

_ تفضل. احضَر به (السكشن) ثم أعطِني إياه.

_ فتناوله بخجلٍ، وهو ينظر إلى الأرض، ثمّ قال لها:

_ من أين حصلتِ عليه؟

_ مِن عم جليل عامل المشرحة. هو يملك معطفاً أو اثنين للطوارئ، ومَن ينسى معطفه يقترضه منه.

_ أشكرك. ثمّ دخلا(السكشن).

لم يسأل الفتاة عن اسمها، ولكنه رد لها المعطف فور انتهاء (السكشن) ومضى وهو صامت.

تعجبت سلوان من تصرفه، وكانت تتوقع أن يتعرف عليها، أو يوليها بعض الاهتمام ولكنه لم يفعل، مما استفزها ولفت انتباهها إليه.

رأيت تلك الفتاة فيما بعد، هي فتاة رائعة الجمال، كانت ما إن تمر في أي مكان حتى تلتفت لها كل الأنظار.

خاصة وأنّها ليست محجبة، فشعرها البني الفاتح الذي يصل طوله حتى ركبتيها في منتهى النعومة، وهو وحده كافٍ لأن يلفت نظر أي إنسان سواء فتى أو فتاة من شدة جماله، فضلاً عن جمال تقاطيعها الغربية بامتياز، حيث البشرة البيضاء المشربة بحمرة وعيناها الخضراوان اللتان تشبهان عيون القطط.

كل هذا المظهر الجذاب لم يكن يدع لأحد الفرصة لكي يتعرف على قلبها، وما به من طيبة وحنان، أو عقلها وما به من ذكاء، وهي مأساة معظم الجميلات.

فكانت تنفر من كل من يمتدح جمالها، وتتمنى لو قابلت أي إنسان يمتدح تفكيرها أو خُلُقها أو قلبها الحنون، ولكن جمالها كان العقبة أمام ذلك.

وعلى غير العادة لم تكن مغرورة، أو عاشقة لشكلها، بل على العكس تمنت لو كانت ذات جمال عادي لا يلفت لها الأنظار، فهو لا يترك لأحد فرصة أن يرى منها غيره.

فكادت تكره وجهها، وتحسد من هنَّ دونها في الشكل، وتنعمن بتقدير أفضل لأرواحهن.

لذلك عندما مر وحيد عليها مرور الكرام دون أن يحاول الحديث معها بحجة المعطف، تعجبت، وأدركت أنّه نوع مختلف من الشباب لم ترَه من قبل، فكانت ترقبه بعينيها كلما رأته من بعيد، وتتبعه أينما ذهب، إلى أن يختفي، محاولة أن تعرف مَن هم أصدقاؤه، وكيف يتعامل معهم. فلم ترَ معه أحداً، وتأكدت أنه يعامل الجميع بالأسلوب نفسه من التجاهل وعدم الاكتراث. وكان هذا ما قصته عليَّ هي بنفسها فيما بعد.

على هامش الحياة

العظماء مثل النسور، وهم يبنون أعشاشهم في وحدة نبيلة.
آرثر شوبنهاور.

أضاء وحيد مصباحاً أمامه على المكتب، وبدأ يقرأ بعض أوراق من كتب الجامعة، ويتصفح القليل. محاولاً فهم ما استجد عليه من علوم لم يكن يعرفها من قبل. ملأت الدموع عينيه وهو يحاول إخفاءها، ولكنّني لمحته من باب الشرفة المطلة على حجرته.
ناديته لكي يتناول العشاء معنا على الطاولة، فرفض، وأخبرني أنّه سيطلب مني بعض الشطائر؛ ليتناولها في حجرته حين يشعر بالجوع.
حين كنتُ ألاحظ مَيل ابني إلى الانعزال، لفتُ نظر زوجي فريد إلى ذلك، ولكنه لم يكترث كعادته واتهمني بالمبالغة في الأمر. بل وقال لي:
_ طالما الولد ينجح ويحصل على أعلى الدرجات لا تهتمي بشيء.
_كيف لا أهتمّ! هو لا يخرج مع زملائه مثل باقي الشباب في مثل سنه، ولا أرى له صديقاً واحداً. أنا قلِقة عليه. كيف سيتعامل مع المجتمع بعد ذلك؟
_ الولد طبيبعي يا أمينة فلا تكوني متشائمة. فما حاجتنا بالأصدقاء والزملاء ممن يعطلون الأولاد عن دراستهم ويفسدونهم.
_ أنا قلقة عليه. ألن يكون له أسرة في يوم من الأيام ويصبح أباً؟

كيف سيفعل ذلك ولا خبرة له بالحياة. ابنُك يعيش على هامش الحياة.

_ حذارِ أن تفاتحيه في هذا الأمر، الشباب لا يحبون النقد، وحساسون جداً من انتقادهم في هذه السن الحرجة. احتفظي برأيك لنفسك.

_ سأفعل. ولكن سيأتي يوم وتعرف عما أتحدث. وهل كنتُ على حق أم لا.

أبي الغريب

قال جان جاك روسو:
(من لا يستطيع أن يقوم بواجب الأبوة، لا يحق له أن يتزوج وينجب أبناء)

أسموني وحيد، وربما لم يخطر ببالهم حينها أنني سيكون لي نصيبٌ من اسمي، أبي رجلٌ شديد التفاؤل هكذا يمكنني وصفه.
أسكننا في منزلٍ كبيرٍ ذي حجراتٍ رحبةٍ، وفراشٍ وثيرٍ، حاول جمع كل أسباب الراحة الجسدية لنا دون أن يفكر في الراحة النفسية يوماً.
الأجهزة الحديثة تملأ كل زوايا المنزل، والحوائط الصفراء الباهتة تحيط بنا كسياجٍ من ورق السوليفان.
هو لا يرى أي مشاكل في حياتنا، وكلما لفت أحدُنا نظرهُ صوب مشكلةٍ ما، لم يعِرها انتباهاً، وتجاهلها، بل ويدير وجهه إلى الجهة الأخرى، ويغير مجرى الحديث، وكأنما يحلو له إقناع نفسه بعدم سماعها، أو ربما كان يتصف باللا مبالاة.
فمثلاً كثيراً ما كانت تطلب منه أمي أن يحضر لي ملابس، فيغير مجرى الحديث، ولو ألحَّت في طلبها ينفجر في وجهها غاضباً، ويمطرها بسيلٍ من السباب، وادعاءات بأنها لا تشعر بالضائقة المالية التي يمر بها، وما هي إلا

أيام قليلة ونفاجَأ به يدخل علينا المنزل محملاً بأكياس مملوءة بملابس لهُ هو شخصياً، وصلت إلى حد أنه اشترى لنفسه سبعة سراويل وستة سترات في يوم واحد، متناسياً مطالبنا، فنظرنا لبعضنا البعض بتعجُب، فعن أي أزمة مالية كان يتحدث! علمتُ فيما بعد أنه شخصية نرجسية بامتياز.

ونراه وهو يقيس ملابسه التي لا ضرورة لها، وهو معجبٌ بنفسهِ وبذوقه الرفيع، منتظراً منا الثناء عليه، ولم يشغل باله يوماً بما نشعر به من حنقٍ واندهاشٍ لتجاهله وجودنا في حياته. وبعد تكرارنا تجاهل الثناء على ذوقه الرفيع ومظهره العظيم، أصبح يبتاع الملابس، ويحفظها سراً في صوان ملابسه دون أن يعرضها علينا!

بينما كان يتركني أنا ابنه الأكبر أثناء طفولتي، بملابس غير لائقة وكأنه لا يراني، ولولا والدتي التي كانت سيدة عاملة - موظفة بإحدى الوظائف الحكومية - لما تأتَّى لي يوماً أن أرى ملبساً جديداً قط، برغم أنه كريم في إحضار طلبات الطعام والشراب التي توافق ذوقه هو فقط طبعاً، ولا سيما حين يكون عندنا ضيوف يزورونا لأي سبب، وربما استعراضاً لإمكانياته أمامهم، وغير ذلك لا أهمية له في حساباته.

كان الظلام في حياتي يغلف كل شيء، ويضنُّ عليّ بلحظاتِ السعادة التي يتمتع بها الجميع دوني.

كنتُ أتعجب من حال أبي، وأظنّ أنّه يستمتع بمدح الناس له، وبرغبته في وصفهم له بالكريم جداً الطيب.

لم أرَه يوماً يصطحبنا للخروج في نزهة، أو في زيارة عائلية، فهو لا يصل رحمه بأي شكل من الأشكال، حتى الأمور الهامة التي يجب عليه تأديتها، لم يهتم بها يوماً، حتى زيارة الطبيب مع أحدنا لو مرض، وهو أمر هام، فما إن تخبره والدتي بمرض أحدنا حتى يدير وجهه، ويقول: اذهبي أنتِ به، أنا لا شأن لي بذلك، فتشعر هي بلا مبالاته بحياتنا، واهتمامه بنفسه فقط، فتتحامل على نفسها حتى لو كانت عائدة من عملها ومرهقة بسببه، بالإضافة إلى شؤون البيت، ولكنها تذهب معي أو مع إخوتي إلى الطبيب مرغمة، وتتحمل وحدها عبء الجلوس بالساعات في عيادة الطبيب، ولا سيما طبيب الأسنان لو استدعى الأمر اللجوء إليه لعارض ألمَّ بأحدنا كلّ فترة.

لم يكن يريد سماع أي شكوى من أي نوع من أمي. لا ما يخص أسرتنا، ولا ما يخص عملها، فاختار لنفسه دوراً ثانوياً في حياتنا، ورضي بهذا الدور. لولا أمي ذلك الملاك الحارس الذي ظل نوره الأبدي يظلل حياتي لما كنتُ استطعت العيش في هذا العالم.

ولكن كل ذلك لا يمنع عدم ثقته في ذكائي وذكاء إخوتي، إذ كان يسقينا من اللوم والتقريع أضعافاً مضاعفة لو حصلنا على درجة أقل من الدرجة النهائية في أحد المواد الدراسية، ويتهمنا بالفشل والتقصير، وأنه لا أمل فينا في المستقبل، مما كان يشعرني بالقهر، والألم النفسي الشديد ويقتل ثقتي في نفسي.

ولا أنسى معاملته السيئة لي في طفولتي منذ نعومة أظافري، فقد كان يسبني لأتفه الأسباب ويضربني بقسوة إذا اشتكى مني أحد، ويتهمني بأني عديم التربية، متناسياً أنّه لم يحاول أن يربيني يوماً.

لا أعرف معنى صداقة الولد بأبيه، أو مقولة الولد سر أبيه، فنحن لم نكن أصدقاء يوماً، ولم يكن يُكلِف نفسه عناء تعليمي أبسط أمور ديني، مثل التوحيد وعبادة الله، وفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضرورة اتباع سنته، هو كان يصلي ويصوم فقط. لا يعرف عن الدين سوى ذلك.

كما إنّه لم يصطحبني إلى المسجد كما كنتُ أرى آباء الأولاد من حولي في طفولتي، وإذا تجرأتُ وذهبتُ للصلاة في المسجد وحدي بدونه، فوجئت بعامل الجامع يركض خلفي، ويحاول أن يضربني، وكأنني دخيل لا قيمة لي، ولمَ لا! فأنا لا سند لي في مواجهته، بينما أرى من هم دون سني مع آبائهم لا يقربهم أحد، فهم في حماية آبائهم.

وأنا من أنا؟ وكأنني بلا أب، بينما هو غافل في الدنيا ينساني، وينسى إخوتي ولا يتذكر سوى نفسه، وعمله لجني النقود وهو الأهم في حياته.

فلماذا أحبه؟ أريد رداً منطقياً يقنعني بضرورة حبّ أبي، هو لا يعرف كيف يحبني، ولا يشعر بأنّ لي أي أهمية في حياته.

وإن قال لي أحدهم هو يحبك، ولكنه لا يعرف كيف يعبر عن حبه، سأرد عليه: آسف جداً فأنا أرفض هذا الوهم.

فأنا لم أُرِد منه كلمات قط، إنما أردتُ فقط فعل الأبوة الذي كدتُ أنساه، ولا أدري كيف سأمنحه لأولادي ذات يوم، اهتمامه بي لا يجب أن أتسوَّلَه منه.

كيف لي أن أخبره بافتقادي لاحتضانه، أو سلامه، كيف أطلب منه أن يراني؟ فقط يراني.. هل هذا كثيرٌ عليَّ؟

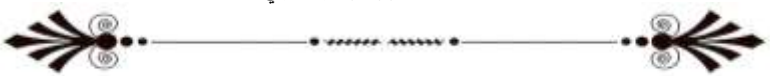

أمي. المثالية التي لا تكتمل

يقول الأديب المصري العالمي الفائز بجائزة نوبل في الآداب نجيب محفوظ عن الأم: "المستهين بقدرات النساء أتمنى أن تُعاد طفولته من غير أُم".

أعرفكم بأمي، السيدة أمينة المهدي خريجة جامعية، تزوجت في سن الثانية والعشرين، كانت قبل الزواج فتاة منغلقة على نفسها تحب العزلة، ويبدو أنّها أورثتني تلك العادة الدميمة في نظر الجميع، والتي كثيراً ما كنتُ أُلام عليها، فهي كانت تخشى الاقتراب من الناس بسبب خجلها الذي لا أعرف سببه حتى الآن، تزوجت بأبي الذي ألقى عليها كل المسؤولية التي ليست أهلاً لها على الإطلاق، فأخذتها الصدمة وكانت كمن تم إلقاؤه من فوق جبل شاهق إلى أسفل في سابع أرض.

واحتارت في البداية، ولم تكن تعرف كيف تتصرف، سقطت من التعب في مشوارها، ثمّ نهضت من جديد، وبدأت تتذكر كيف كان يربيها والدها، استجمعت كل ذكريات طفولتها لتطبقها عليَّ وعلى إخوتي، نفضت غبار الخجل المرضي عن حياتها، وبدأت تتعامل مع الناس بصورة طبيعية من أجلنا، فكانت تصحبنا وحدها للتطعيم، وللعلاج لدى الطبيب مع ملاحظة عدم وجود أبوين لها بالقرب من مسكننا ليساعداها في مهمة تربيتنا،

حيث أنها تزوجت في مدينة أخرى غير التي نشأت فيها. المهمة التي تحملتها رغم وجود زوجها على قيد الحياة اسماً فقط.

كانت تجلس معنا تقص علينا الحكايات التي تبتكرها من بنات أفكارها، لتوصل لنا عقائد إيمانية هامة هي أساس ديننا إلى اليوم، من حواديت عن الأمانة، والصدق، والوفاء، وطاعة الوالدين، والأهم محبة الله ورسوله وشكر نعم الله علينا، وقصص معظم الأنبياء.

كانت تعلمنا، ونحن في المدرسة مبادئ القراءة والكتابة، والحساب، نظراً لعدم صبر المعلمين في الدروس الخصوصية، أو في المدرسة على ذلك.

كانت تحضر اجتماعات مجلس الآباء، وحفلات التكريم لو صادف وكنا من الأوائل، كانت دائمة التشجيع لنا على الصلاة وحفظ القرآن الكريم، والتزمنا بذلك في طفولتنا ولكن، ويا للعجب عندما كبرنا، شببنا لا نقرأ في المصحف، ولا نصلي وتركنا جانباً معظم ما تعلمناه منها بهذا الخصوص، ولا أدري السبب، ولكن ثوابت الدين تغلغت في نفوسنا، فأصبح لنا ضميرٌ حيّ لا يغفل ثانية، ووازعٌ ديني يمنعنا من ارتكاب المعاصي، جزاها الله خيراً عنا.

وإن كنتُ أتمنى من صميم قلبي لو يهديني الله وأصلي وأحفظ القرآن الكريم.

أمي تحملت جفاء أبي، وقسوته عليها وعلينا، وكم باتت ودموعها على وسادتها من الحزن والألم، ولم تفكر في الانفصال عنه.

وقد سألتُها ذات مرة: لمَ تحملتِه يا أمي؟

فتنهدت ونظرت إليَّ بحزنٍ، ثمّ قالت:

_ليس لكم ذنب في سوء اختياري، فأنا برغم صغر سني، وعدم خبرتي في الحياة، كان يجب عليّ أن أتحرى الدقة في اختياري لشريك حياتي، ومعرفة أن هذا الإختيار سيترتب عليه ليس حياتي فقط، ولكن حياة أبنائي مستقبلاً، وهم لا ذنب لهم، فلو انفصلنا ازداد الطين بلة. ولن أستطيع الإنفاق عليكم وعلى تعليمكم، ونظرة المجتمع لي ولكم ستتغير، وربما ظلمني الجميع لأني بحثت عن راحة بالي، وتركتُ زوجي ومعي أبناءٌ منه.

أحببتُ أمي جدّاً، ولكنّني كنتُ أريدها لي أنا فقط، فكلما وجدتها تهتم بإخوتي كريمة ورضوى كنتُ أشعر بالضيق، وكلما وجدتها تقرأ أحد الكتب أو الصحف والمجلات التي كانت تعشقها، كنتُ أغار عليها، وأتمنى لو كان كل وقتها لي وحدي، برغم أنّ هذا كان مستحيلاً، ولكن ذلك أثر على محبتي لها شيئاً فشيئاً، حتى صارت بالنسبة لي علاقتنا كالعلاقة الفطرية بين أي ابن ووالدته، وليس تعلقاً مرضياً كما كان في طفولتي، بل كنتُ أشعر بالضيق من قلقها عليّ إذا تأخرتُ خارج المنزل، ومحاولاتها المستميتة في الوصول إلى مكاني، فأزدادُ عِناداً، ولا أرد عليها حين تهاتفني، بل وأترك الهاتف يدق بلا رد متعمداً، أو أغلقه. وأنا أعلم كم تحترق أعصابها بسبب ذلك.

بل كان يحلو لي ألمها، وضيقها أحياناً ولا أدري السبب.

كنتُ أشعر أنه ينقصها ألا تهتم سوى بي، وكلما نظَرَت في أحد الكتب أو تصفحَت أحد مواقع التواصل الاجتماعي، أشعر بأنّها مقصرة جداً في حقي، فأنهال عليها باللوم والإساءة، بل أحياناً كانت تبكي بسببي، مما يزيد الأمر سوءاً، ولا تفهم أنّ ذلك كان لشدة تعلقي بها، واحتياجي إليها.

كنت في طفولتي لا أستطع المذاكرة سوى وهي بالقرب مني، وعندما دخلتُ الجامعة امتنعت هي عن ذلك بحجة أنّ أختيّ كريمة ورضوى في حاجة إليها مثلي، فتبرمت من ذلك ولكن تقبلتُ الأمر فيما بعد.

وحيد بمعنى الكلمة

يقول ريشتيد:
(ليس في الدنيا من البهجة والفرح مقدار ما تحس الأم للنجاح الذي أحرزه ولدها).

ابني الأكبر، النور الذي يضيء حياتي، أخشى عليه من النسيم، ربيته بعناية، وحاولتُ زراعة القيم النبيلة التي تعلمتها من أبي فيه هو وأختيهِ، فكنتُ لا أضنُّ عليه، وعلى أختيه بأي معلومة أعرفها لينشؤوا على خلقٍ قويمٍ مثلي، تحملتُ في سبيل ذلك الكثير من الضغط العصبي، وكنتُ لا أفوِّت هفوةً إلا وأقف عندها وأحللها؛ لأعرف كيف قصرتُ في تربيتي، ولكن رغم ذلك، ألمح الحزن يسكن في عينيه، ليس لأنني قصرتُ معه، ولكن ربما لابتعاد والده النفسي عنه، ووجود جدارٍ عازلٍ بينهما. وحاجة الولد إلى مصاحبة أبيه، فأصبح وحيد، عصبياً أحياناً ومنعزلاً أحياناً أخرى، وكثيراً ما كنتُ أبكي سراً من أجله، فهو ولد طيب القلب لا يعرف للؤم سبيلاً، رأيته دائماً واضحاً، باطنه كظاهره، كم تمنيت لو كان سعيداً، ولو كان عمري ثمناً لذلك لما بخلتُ به عليه، ولكن ليس بالأماني وحدها نحيا.

سألتُ الله كثيراً أن يهديه فيصلي، ولكن لابد أن تنبع الرغبة في الهداية من داخله، هو ابني الوحيد مع أختيه أحب أن يصبح رجلاً يُعتمد عليه، حتى يقف معهما في مستقبل حياتهن بعد أن ينتهي عمري.

قلِقة عليه أكثر من الفتاتين، فهما سيأتي الوقت وتتزوجان، أما هو فمن سيسأل عنه؟ هل سيتزوج؟ أم سيُفضِّل الوحدة التي يعشقها، ولا يمل منها أبداً.

كل الأمهات تخشى على أولادها من أية مشاعر تنشأ بينهم وبين زميلاتهم، لئلا تعطلهم عن الدراسة، ولكن أنا وضعي مختلف، كنتُ أتمنى لو علمتُ أنّه يحب إحدى الفتيات لتُحببه في الدنيا، وليسعد معها بالمشاعر التي تحرك إنسانيته، فيرى الوجود أحلى، ربما كان الحب دواءً له، وعوضاً له عن أشياء شتى قد حُرِم منها في أسرتنا الباردة التي كانت تبدو للناس سعيدة.

علاقته بأختيه ليست جيدة، فهو يتجنبهما، ولم أرَه يتحدث من قلبه لإحداهما يوماً، كما كنتُ أخشى أن يستمر هذا الفتور بينهما مستقبلاً، وحاولتُ التقريب بينهما وبينه، ولكن دون جدوى. كثيراً ما تخيلتُ الوضع بعد وفاتي، فيزيد قلقي على أبنائي جميعاً، وأتمنى لو عاد بي الزمن لأربيهم من جديد على محبة بعضهم البعض.

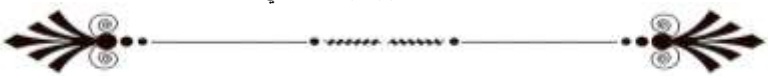

تدهور وانهيار

(لا أعرف إن كنتُ أقتلُ أيامي أم أنّ أيامي تقتلني، في الحالتين هناك جريمة تحدث)

فيودور ديستويفسكي.

كنتُ أتصفح محرك البحث جووجل كعادتي بحثاً عن معنى كلمة إسقاط، وقد درسناها في الطب النفسي، وصادفني في اختيارات البحث عبارة إسقاط نجمي، فلفتت نظري وتركتُ ما كنتُ أبحث عنه وقمتُ بالبحث عن معنى إسقاط نجمي وكانت المفاجأة.

وتبين لي أنّها حالة يصل إليها من يجربها وهي إحساس أشبه بانفصال الروح عن الجسد مع بقاء رابط بينهما يسمى الحبل الأثيري، بينما ترتفع الروح فوق الجسد وترى ما لا يمكن للجسد رؤيته، شعور بالشفافية والخفة يُمكِّن روح من يجربه من الطفو فوق الجسد. ولكن لا يصل إلى هذه الحالة إلا من يتقن تمارين التأمل، وليست كل الأرواح قادرة على ذلك، فهي في حاجة إلى تدريب طويل، كما أن مَن مارسوه ونجحوا فيه تحدثوا عنه بكل أسف، وقالوا إنهم لو عاد بهم الزمن لن يفكروا في القيام به مرة أخرى، فهي تجربة مخيفة، ولا طائل منها، كما إنّ آراء رجال الدين في

هذا الأمر واضحة لا اختلاف فيها، اعتبروها من المحرمات، لأنّ الروح ملك لخالقها وهو صاحب الحق في التصرف فيها كيفما شاء.

فكرتُ طويلاً في التجربة، ولكنّني تراجعت في آخر لحظة، لأنني تأكدتُ أن هذه التجربة حرام شرعاً، ولن أنال منها سوى غضب الله.

ولكنّني قررتُ أن أشغل بالي بأمرٍ أهم في الإجازة الصيفية، فقد انتشرت ظاهرة إطلاق قنوات بث على اليوتيوب ومتى قدَّمت محتوى يهم الناس زاد عدد المشتركين فيها، وكذلك زادت الإعلانات فأصبحت تدر دخلاً على صاحبها، فقررت أن أخوض التجربة، ومن حجرة المكتب وأنا جالس أمام جهاز (اللابتوب)، بدأت رحلة البحث داخل اليوتيوب لأرى القنوات التي تضج بالزائرين وأعرف اهتمامات الناس، وكنتُ وقتها أتوقع أن تكون قنوات عرض الدراما أو الصحف، ولكنّي فوجئت بأنّ قنوات أخرى تماماً هي التي تستحوذ على المشاهد، وتجذبه، ومعظمها لا تحمل أي محتوى هادف، مثل قنوات مطربي المهرجانات المسفة، وقنوات قصص الرعب، وقنوات لا أخلاقية تمنعني أخلاقي من ذكرها.

فضلاً عن تلك التي يبث أصحابها حياتهم الخاصة لحظة بلحظة إلى الناس التافهين طبعاً، ليروا ردود أفعالهم، وكأنهم يعيشون مسرحية مفتعلة بلا هدف سوى جني المال، فشعرت بخيبة الأمل وبرغبتي في الانصراف عن كل ذلك، وبأنني ليس بوسعي المشاركة في هذه المهاترات، حتى لو جنيتُ منها

أموالاً طائلة، فأظن أنني وقتها سأكون قد خسرتُ نفسي، ولن أحترمها مطلقاً بعد ذلك.

كنتُ معتاداً على استذكار دروسي في فترة ما بعد منتصف الليل، حيث إنّني مخلوق ليلي بامتياز، استيقاظي للذهاب إلى الكلية من أجل حضور السكاشن المقررة عليّ، كان بمثابة نوعٍ جديدٍ من التعذيب اليوميّ، أفشلُ كثيراً في تحمُله في معظم الأوقات، وإن تحاملتُ على نفسي، وحضرتُ السكشن، أشعر بالضيق والكسل وعدم القدرة على التركيز، فبدأتُ أتغيب عنها، وأطلب من زملائي تسجيلي في الحضور، حتى لا أُحرَم من دخول الامتحان، ولكن ضميري كثيراً ما كان يؤلمني بسبب ذلك، ويشعرني بالتقصير، فأتعذب أثناء صحوي، وأحلم بالأحلام المزعجة أثناء نومي، ولا حيلة لي في تخطي ذلك، ولا يستطيع أحد مساعدتي في إنهاء ذلك الشعور.

بدأتُ شيئاً فشيئاً أهمل دراستي، وأشعر بأنها عبء عليَّ، وبأنّني تسرعتُ في الالتحاق بهذه الكلية الصعبة، التي تستنزف كل طاقتي وأعصابي، وتخترق كل لحظة من حياتي.

وقد لاحظت أمي ثمّ أبي ذلك، فتكدر مزاجهما كثيراً، وصارت أمي تدعو لي في كل حين، بل وترشدني إلى ضرورة رؤية طبيب نفسي ليساعدني على تخطي هذه الأزمة، لكنني رفضتُ بشدة، وقررت بأنني أنا طبيب نفسي.

كانت الدنيا تضيق عليَّ وأنا أرفض أن يمد أحد لي يد المساعدة بكل إصرار، وأشعر أنني كرهتُ الحياة ولا رغبة لي بها.

أصبحتُ أمضي الساعات الطوال في النوم، ولا أتناول الطعام إلا مرة واحدة يومياً، وعلى مضض، وبدأت أشعر بالانسحاب من العالم، وبعدم الرغبة في الكلام مع أحد.

حتى اللابتوب لم أعد أشعر بالشغف الذي كان يستولي عليّ عند تصفح المواقع المختلفة فيه، ووجدتُ نفسي أفكر في طريقة لمغادرة الحياة.

كنتُ أعلم أنّني في طريقي إلى الانهيار، وما منعني من إنهاء حياتي سوى خوفي على أمي التي سوف تموت بسببي إن فعلتُ ذلك.

ولربما كانت غريزة البقاء، وحب الذات أيضاً تدفعني إلى الهروب من فكرة الانتحار التي باتت تطاردني كلما انفردتُ بنفسي.

بينما أنا غارق في بحر من التعاسة، والأيام تمر عليّ بطيئة مملة، وجدتُ موعد الاختبار قد حان ولم أذاكر شيئاً، باختصار لم أدخل الاختبار. لماذا أنجح؟ وماذا سأفعل بنجاحي إذا كنتُ قد فقدت الرغبة في كل شيء.

لم أندم على ما فعلت، فهو ليس بيدي، كانت الأيام حرفياً لا تمر.

ولكنّ شيئاً ما بداخلي يخبرني أنّني لابد أن أقاوم لا أدري ما هو! وكأنها إرادة سماوية تمنعني من الانهيار الكامل، وتذكرني برغبتي في أن أكون إنساناً عادياً، وهو أقصى طموح لدي.

بدأتُ أقرأ على مواقع الطب النفسي العلمية العالمية باللغة الإنجليزية، وعلمتُ أنني مصاب باكتئاب حاد.

لابد أن أقاوم، وأن تنبع الرغبة في التعافي من داخلي أنا، وإلا فلن يجدي العلاج.

قلقٌ قلق

يقول كونفوشيوس:
(يعترف الأب بابنه سواء كان موهوبًا أو بلا موهبة.)

كنتُ أرى ولدي يذبل أمامي، ولا أملك علاجه ولا أقوى على الاعتراض على أي تصرف خطأ يفعله في حق نفسه؛ خشية رد فعله الذي دائماً ما كان يفاجئني.

علمتُ منذ صغره أنه سيعاني بسبب انعزاله، ولكن لم يساعدني والده في تخطي ذلك، والوصول به إلى بر الأمان.

حال رفض وحيد بيني وبين مساعدته، فلا أملك سوى الدعاء له.

كنتُ أقرأ كثيراً في كافة المواقع الكترونية التي تتضمن معلومات تتعلق بالعلاج النفسي، معلومات بعضها صائب، وبعضها لا أساس له من الصحة، وكيفية توفير الدعم للمريض، وكيفية إقناعه بأنّه يعاني من مشكلة نفسية، ولكنّ ابني لم يستجب لأي طريقة عرضتُها عليه للخروج من أزمته، وكان كثيراً ما يرفض فكرة أنه مريض، وفي حاجة إلى العلاج.

لجأتُ إلى الله ودعوته آناء الليل، وأطراف النهار أن يرفق بي، ويشفيه من أجلي وقد استجاب. وعرفتُ أنه لجأ إلى طبيب نفسيّ (أون لاين) لكي يساعده على العلاج دون إخبارنا.

وجدته يتغير شيئاً فشيئاً، وبدأ ينتظم في دراسته ثانية، لم أكن أعارضه في أي طلب يطلبه مني، وبدأت معاناتي معه تقل.

خاصة بعد أن اشترينا شقة جديدة بالقرب من كليته وأصبحنا نقيم معه أثناء الدراسة، وترك المدينة الجامعية تماماً، أعتقد أنّ لهذه الخطوة الفضل في رجوعه إلى سابق عهده وتعافيه.

سُلوان

ثلاثة انتبه منها: الماء والنار والمرأة، فالماء تُغرق، والنار تحرق، والمرأة تفقدك صوابك.

''شكسبير''

رأيتها لأول مرة في الكلية، وساعدتني وأنا في وقتٍ حرجٍ، كانت جميلة مثل الفراشة، لم أستطع أن أدقق النظر في عينيها، رهبة من هذا الجمال الطاغي، وإن كنتُ شعرتُ بأنها محاطة بهالة من الجمال النوراني الآخر، جمال نادر، يبعث في نفسي شعوراً بالسَكينة، والدفء.

تمنيتُ لو تغلبتُ على شعوري هذا، وتعرفتُ عليها، ولكنني شعرتُ بغُصة في حلقي وبرغبة جامحة في الابتعاد خوفاً من الفشل، أو التعلق الذي لا تؤمَن عقباه.

كنتُ في أعماقي أتمنى لو بادرتني هي بالكلام مرة أخرى لأتأكد من أنها تراني.

لا أن تتعامل معي كأي غريق في حاجة إلى طوق النجاة، وهي تساعده لمجرد الشفقة عليه.

كيف لي أن أعرف حقيقة سريرتها، هل وقعتُ من نفسها هذا الموقع الذي وَقَعتهُ من نفسي؟ أشك في هذا.

أتذكر قول أبو العلاء المعري: (هذا جناه أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد)
فأنا أخاف أن أكون مسؤولاً عن أحد غير نفسي في يوم من الأيام.
مرعوب من فكرة وجود فتاة في حياتي قد تشقى بسببي يوماً ما، أو أحمل ذنبها وأحاسَب عليه أمام الله.
ولكن رغبتي في رؤيتها تشعل جنوني، أتمنى أن أبقى مراقباً لها طوال اليوم حتى يستقر قلبي في موضعه، وأتنهد بعمق حين أطمئن أنها بخير وجاءت الكلية، ولكني أحاول عدم لفت انتباهها لي، فأتخفى حين أنظر إليها، أو أراقبها من بعيد.
لا أتخيل أنني أستطع مواجهتها والنظر في وجهها مباشرة، ربما لاحَظَت شغفي بها، فكيف أداريه عنها؟
هل أحببتها فعلاً؟ أبهذه السرعة! من موقف واحد فقط؟
دق قلبي بعنف حين اهتمت بأمري، ودق بعنف أكبر حين تصرفت، وأعطتني المعطف لأحضر السكشن، هل هذا سببٌ كافٍ لكي أهتم بها؟ لم أكن أصدق هذا الكلام من قبل، بل وكنتُ أسخر ممن يتفوه به، مدَّعياً أنّه فارغ العقل ولا مشاكل لديه.
ولكنني اليوم أتساقط خوفاً عليها لو غابت عن الكلية يوماً، تعودتُ أن أراها من بعيد وأختلس النظر إليها دون أن تشعر، حتى لا تسيء فهمي.
ربما جمعتني بها مصادفة ما، وأنا أهبط الدرج في سبيلي إلى المشرحة، ولكنني أبداً لا أتخيل أن يمر يوم بي دون رؤيتها.

فكرتُ في اصطناع موقف ما للحديث إليها، ولكنّني فشلت، فأنا لا أجيد الادعاء.

هل يمكن للحبّ أن ينتشلني من بئر سحيقة؟ كلما حاولتُ الخروج منها سقطتُ أعمق!

لا أدري شيئاً. أحاول فقط العثور على طريق إليها لكي تهدأ نفسي.

فربما كانت مشاعري تجاهها سبباً لسعادتي، وربما أرسلها الله لي لكي يخفف عني ما كنتُ أعاني من وحدة.

اتجهتُ إلى (كافيتريا) الكلية؛ لكي أتناول القهوة، وكنتُ جالساً على الطاولة التي تقبع في آخر صف وحدي كالعادة، وفي يدي كتاب علم (الباثولوجي) أتصفحُ المحاضرة الأخيرة، وبينما أنا أمسك بالفنجان إذ تهتز يدي حين ألمحها بطرف عيني على الطاولة المواجهة لي؛ فيسقط الفنجان، وتنسكب القهوة على الطاولة والكتاب، فأشعر بالحرج الشديد، ولا أدري ما أفعل حيث ساد الارتباك الموقف، وفي خلال ثوانٍ ألمحها تنهض وتتجه نحوي.

يا إلهي! كم ترتفع دقات قلبي، وكأنّها تعزف لحناً صاخباً يضج بالحياة، تحييِّني بابتسامة عذبة، وتتناول الفنجان من فوق الكتاب، ثمّ تهمُّ بتنظيف الكتاب والطاولة ببعض المحارم الورقية، وهي تقول: خير.. خير، يقولون إنّ انسكاب القهوة خير.

تصيبني الدهشة، إذ لا أراها إلا وأنا في موقف حائر ويصعب عليَّ التصرف، فتنقذني.

فأقول لها بعد أن أهدأ قليلاً:

- يبدو أنكِ ستنقذينني دائماً!

تبتسم في مرحٍ وتقول:

- لا عليكَ أنا جاهزة لذلك.

همَّت بالانصراف، فاستجمعتُ شجاعتي واستوقفتها قائلاً:

_أيضيركِ لو تناولتِ شرابكِ معي؟

_أبداً، باقي على المحاضرة نصف ساعة.

أحضرت كوب العصير من على طاولتها، وأتت في الحال.

كانت كقنينة عطر تتهادى في ثوبها الزهري المفعم بالحيوية.

قلتُ بحذر:

_ سلوان.. أليس كذلك؟

نعم ، وأنت وحيد؟

_ نعم.. سررتُ بمعرفتك.

_ أنا أيضاً، نحن كلنا إخوة، لأنّنا في دُفعة واحدة.

_ أكيد.. لو احتجتِ لأي شيء في أي مادة دراسية يمكنني مساعدتك.

_ أشكرك يا وحيد، ولكن لو سمحت لي إنّني أراك وحيداً دائماً، ألا تحب الصحبة؟

_ الحقيقة لا أجد نفسي مع أي صديق، ربما أختلف في الطباع مع كل من أعرفهم.

_ اسمح لي أن أكون صديقة؟ يمكنني سماعك في أي وقت، وسأحاول أن أكون جديرة بصداقتك لو أدخلتني إلى عالمك الذي لا يسكنه سواك.

_ يسعدني طبعاً، ولكن أخشى أن تشفقي عليّ لأنني أحياناً أعتبر نفسي مقلقاً لغيري.

_ لا أبداً.. أنتَ فقط مُختلف عمن أراهم، لذلك أشعر أنكَ تشبهني كثيراً.

في المساء أرسَلَت لي سلوان طلب صداقة على الفيس بوك فقبلته، وبدأنا نتحدث بالكتابة على الشات سوياً، دردشة عادية تشبه كلامي مع أختي رضوى التي تصغرني بعامين.

كانت متفهمة لكلّ ما أحكيه لها، وتؤيدني في آرائي، فشعُرتُ أنّ روحَها تشابه روحي كما أخبرتني من قبل، وهو ما لم أشعر به مع أحد.

بل كأنّها تعرفني منذ زمنٍ طويلٍ، وأنا كنتُ أشعر براحة نفسية، بل بسعادة غامرة لم تصادفني طيلة حياتي، وأتعجب من أمري، كيف استطاعت استمالة قلبي بهذه السرعة؟ حتى وجدتُني أصف لها كلّ ما أفكر فيه بكلّ يسر، وأنا مَن لم يدع أحداً يقترب من فكره على مدى أعوامٍ طويلة، حتى والدتي لم أكن أسمح لها بالنفاذ إلى عقلي ومعرفة أفكاري، لكن سلوان فعلت ذلك دون أن أشعر، فعلته بدون استئذان.

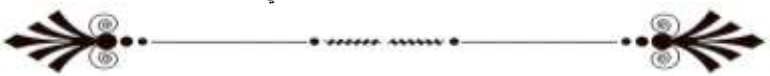

وحيد

المرأة لغزٌ مفتاحه كلمة واحدة هي الحبّ.

''نيتشه''

عرفتُه بالمصادفة، ولفت انتباهي بهدوئه، وانعزاليته، وعدم اكتراثه لأحد، ولا حتى لي، ولكن عندما تكلمنا سوياً شعرتُ أنّ بداخله براكين تغلي تحت هذا المظهر الهادئ، فأثار فضولي.

والدي انفصل عن والدتي، وأنا في سن الثالثة عشرة بعد خلافات عديدة، فتحتُ عيني عليها منذ طفولتي، جعلتني أتمنى المنزل الهادئ، وأخاف من فكرة وجود زوج لي في يوم من الأيام، وأشك في وجود رجل حنون.

اختفى أبي من حياتنا بمجرد طلاقه لأمي، وظللتُ أنا معها أستمع إلى كراهيتها له التي تصبها في رأسي يومياً.

أحياناً أتعاطف معها وأغضب منه، وكثيراً ما أتمنى لو سمعتُ دفاعهُ عن نفسه ولو مرة واحدة. فربما كانت أمي تتجنى عليه.

لم أعرف كيف تكون علاقة الأب بابنته، فلم أجربها، ولكنّني تمنيتُ أن أراه وأملأ عيني منه، وأظنّ أنّني كنتُ سأشعر بالأمان لو كان إلى جانبي.

أنا أفتقد أبي، ولكن لا أعرف له طريقاً. أخشى أن يتحول مع الأيام إلى شبحٍ أطارده ما بقي لي من حياتي في الدنيا.

قرأتُ ذات مرة رواية الرباط المقدس للراحل توفيق الحكيم، وكان راهب الفكر فيها يقرأ كتاباً عن الفلسفة، ويتأمل قول كاتبه، فأعجبني جداً ما أعجب راهب الفكر، وهو حين يقول أبو بكر الرازي عن الحب في الكتاب:

(إنّ مفارقة المحبوب أمر لابد منه اضطرارياً بالموت، وإن سلم من سائر حوادث الدنيا، وعوارضها المبدِدة للشمل، المفرِقة بين الأحبة، وإذا كان لابد من إساغة هذه الغُصة، وتجرُع هذه المرارة، فإن تقديمها والراحة منها أصلح من تأخيرها، والانتظار لها، لأنّ ما لابد من وقوعه متى قدم، أُزِيحت مؤونة الخوف منه مدة تأخيره، وأيضاً فإنّ منع النفس من محبوبها قبل أن يستحكم حبه، ويرسخ فيها ويستولى عليها، أيسر وأسهل، وأيضاً فإن العشق متى انضمت إليه الألفة عَسُر النزوع عنه، والخروج منه، فإن بلية الألفة ليست بدون بلية العشق، بل لو قال قائل إنّه أوكد وأبلغ منه، لم يكن مخطئاً، ومتى قصرت مدة العشق، وطال فيه لقاء المحبوب كان أحرى ألا تخالطه وتعاونه ((الألفة))! والواجب في حكم العقل من هذا الباب أيضاً المبادرة في منع النفس، وذمها عن العشق قبل وقوعها فيه، وفطمها منه إذا وقعت، قبل استحكامه فيها).

تأملتُ ذلك القول، وأيقنتُ أنني لابد مفارقة كل من أحبهم إن لم يكن بالسفر فبالموت، ففكرة أن تنتهي حياة أبي دون أن أعثر عليه، ويضمني إلى صدره ولو مرة واحدة تؤرقني وتقضّ مضجعي.

كما أخشى أن يتحول اهتمامي بوحيد إلى حبّ، ثمّ عشق، وهو ما أظن أنني على أعتابه، ووقتها يقع في نفسي تجاهه الألفة التي أخشاها، ويحذر منها من خبِرها من الفلاسفة.

وحينها قد يكون فراقنا الذي لابد منه آتٍ لأي عارض لا محالة، سوف يقضي عليَّ حينها الألم المصاحب للفراق، وينهي حياتي.

فأنا أخافُ على قلبي من الألم، وهو ما لا يفارقني معظم أيام حياتي.

دَلَفت والدتي إلى حجرتي وسألتني:

_ أراكِ ذابلة وكاسفة البال هذه الأيام يا سُلوان، فما الأمر؟

_ لا شيء يا أمي.. الدراسة صعبة كما تعلمين، وتحتاج إلى كل دقيقة من فكري.

_ طمأنتِ قلبي يابْنتي.. فـأنا قلقة عليكِ كتب الله لكِ النجاح.

_ يا ربّ يا أمي.

ذاكرتُ محاضراتي في ذلك اليوم باجتهاد، ونشاط وكأنّ أمراً جديداً قد أصاب روحي وغيَّر داخلي ما لا أعرفه.

عزمتُ على أن أكُف على الكلام مع وحيد؛ لكيلا أتعلق به، فأصبح ضعيفة ومحتاجة إليه، وتمنيتُ لو نسيَني هو الآخر، وذلك إشفاقاً عليه. ولم يكن يخطر ببالي كم أصبح ذلك عسيراً على نفسي.

فذهبتُ إلى الكلية في اليوم التالي، وحرصتُ على ألا ألتقي به، وتجنبتُ حضور (سكشني) وحضرتُ مع سكشن آخر، فحاول الاتصال بي عبر

الهاتف، ولكنّني رفضتُ الرد عليه، وأغلقتُ صفحتي على الفيس بوك، وكففت عن التواصل معه بأي وسيلة كانت.

انقطعتُ عنه، وبدأتُ في رحلة عذاب، وضجر لا أفهم لها سبباً، ولم أكن أتخيلها يوماً.

أظن أنني تعلقتُ به دون أن أدري.

لقد انقلبت حياتي فجأة إلى حزن، وألم وصرتُ أخشى من عاقبة ذلك، وأتمنى ألا يخلص الله ذنب وحيد مني، فقد تعلق بي وتركتُه دون أي جناية منه. ودون سابق إنذار.

أصابني الأرق، وأكل التفكير كل ما تبقى لي من عافية، فذبُلت عيناي، وظهرت الهالات السوداء لأول مرة على وجهي، وفقدتُ الكثير من وزني، وبات واضحاً أنني أعاني أمراً جللاً في صمت.

لم أحفل بفكرة العودة إليه، فقد سرتُ في طريق الانقطاع عنه بكامل إرادتي، ومن الصعب أن أتراجع. ومن الأصعب أن يقبل هو عودة علاقتنا لو حاولتُ أنا ذلك.

غادرة

ليس هناك امرأة تكره الحب سوى امرأة شقيت من الحب.

"سيروس"

هى المرة الأولى التي أسمح لأحد فيها بدخول قلبي، ولكنّني ندمتُ كثيراً، فقد استسلمتُ في البداية لمشاعري التي تجذبني إليها، ولم أفهم لِمَ هيَ بالذات؟!

كنتُ حين أراها أشعر بهالة من النور تقتحم كياني، فينفتح قلبي للدنيا، أشعر بالسعادة والرغبة في الحياة، كم تمنيتُ أن تبقى أمامي طوال العمر، وكنتُ أنوي الارتباط الرسمي بها، ولكن فجأة وبدون سابق إنذار ابتعدَتْ، ولم أفهم ما الجريمة التي ارتكبتُها في حقها لتفعل ذلك بي، لم تكن تعرف كيف وصلت إلى سويداء قلبي، وتوطنت روحي، فلم أعُد صالحاً للحياة من بعدها.

كيف سأثق في أي فتاة بعدما فعلتهُ معي. كان قلبي ينبض بشدة ويداي ترتعشان حين أفكر في أنني سأراها أو حتى سأحدثها في الهاتف، لم يكن يخطر ببالي أنها ستنساني بهذه السرعة. إذاً فقد كان حباً من طرفٍ واحدٍ وهي لم تشعر بي يوماً.

سأحاول أن أنهض من جديد، وأتمنى أن أستطع، فأنا لا أنام، ولا أتناول الطعام، ولا أذاكر.

أنا حتى انقطعتُ عن الذهاب إلى الكلية، وأمكث في غرفتي وحدي دائماً في الظلام، ولا أطيق حتى أن أضيء المصباح.

أسبح في خيالي مع أفكارٍ شتى، أهرب بداخلي، أنكمش وحدي لا أريد أحد، ولا أتمنى شيئاً. تدور الأسئلة في عقلي وتلهب مشاعري بسياطٍ من نار، فأتساءل لمَ، ما هي جنايتي؟

غدرت بي بعد أن علِمَت مكانتها عندي. لماذا تغدر الفتيات بقلوب الشباب، هل آن لي أن أنهي حياتي؟ ولكن لا... فهي غادرة ولا تستحق أن أغضِب ربي بسببها. ولا حتى أن أخسر نفسي.

كما أنّ أمي لا تستحق كلّ هذا الشقاء لو غادرتُ العالم بهذه الطريقة.

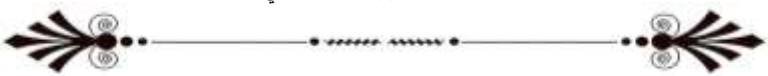

أحببته فعلاً

(قد يكتب الرجل عن الحب كتاباً، ومع ذلك لا يستطيع أن يعبر عنه، ولكن كلمة عن الحب من المرأة تكفي لذلك كله).

''فيكتور هوجو''.

دق جرس الباب فسمعتُ والدتي تفتح وتستقبل القادم بصوتٍ عالٍ فتقول:

_ أهلاً سُعاد، ألا نراكِ إلا كل عامٍ مرة؟

_ رغماً عني يا أختي، تعلمين ظروفي الصعبة.

_ تفضلي بالدخول سلوان بالداخل ستُسر جداً برؤيتك.

دلفت خالتي الشقة، ونادتني أمي لأراها، وكنتُ أحبها جداً، إذ كانت تكبرني بثلاثة أعوام فقط، فنحن صديقتان، هرولتُ إليها في ردهة الشقة، واحتضنتها بشوق بالغ، ثم قلتُ لها:

_ أهان عليكِ أن تتركيني كل هذا؟

_ آسفة يا حبيبتي رغماً عني، فجدكِ كان مصاب بوعكة صحية اضطرتني إلى المكوث بجواره، وعدم مغادرة المنزل منذ شهر تقريباً.

_ وكيف حاله الآن؟

_ الحمد لله بخير تحسن كثيراً.

_ كنتُ في حاجة إليكِ. هناك الكثير بداخلي أريد الإفضاء به لكِ.

_ أنا اليوم تحت تصرفك، وسأبقى معكم حتى المساء.

_ إذا هيا معي إلى حجرتي لأخبركِ بموضوعٍ هامٍ.

_ هيا بنا.

دخلنا إلى حجرتي، فجلستُ على التخت، وتقابلني سعاد على مقعد الفوتيه المجاور لمكتبي.

فبادرتُها قائلة:

_ كيف يمكنكِ نسيان شخص تعتادين عليه؟

_ تعودتي عليهِ فقط؟ أم أنّ هناك شيئاً آخر؟

_ ربما أحببته.

_ وربما تعلقتي به فتألمتي لابتعادكِ عنه.

_ ربما، ولكن لابد من الابتعاد.

_ أهو زميلك في الكلية؟

_ نعم.

_ صعب أن تبتعدي عنه، فلابد أنكِ سترينه ولو مصادفة.

_ لا أذهب إلى الكلية، وأشعر بالضيق من كل شيء.

_ والسكاشن؟ ودراستكِ. كليتك لا تحتمل الغياب، وإلا سترسبين.

لا تصعبي الأمر على نفسك.

_ طيفه يطاردني كل لحظة، لا أستطع التركيز في مذاكرتي، ولا أن أمنع نفسي من التفكير في أمره.

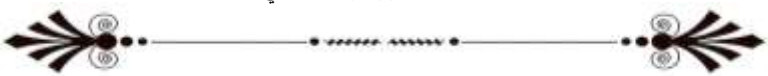

_ لماذا تريدين البُعد عنه، هل هو سيّئ الخلق، هل ضايقكِ أم إنه لا يحبك؟

_ أبداً لا شيء من هذا. هو يحبني، وعلى خلق ومستقيم لا يعرف سواي. ولكنّني أخاف من التعلق به فيتركني، فأموت من الألم.

_ أتظنين أنكِ لم تتعلقي به بعد؟ أنتِ بالفعل قد تعلقتي به دون أن تدري، وحالتكِ هذه ما هي إلا مرحلة في رحلة العذاب الذي يتبع الفراق، ويا للعجب فأنتِ مَن وضعتِ نفسكِ في هذا الموضع بكامل إرادتك بسبب خوفك. وكل ما ذكرتيه أسباب واهية. ولم تنتظري لتري هل ستفترقان أم يشاء الله بأن يجمع بينكما إلى الأبد.

_ أخشى الألم يا خالتي، فأنا قضيتُ معظم أيام حياتي أتألم، تعلمين كم كنتُ وحيدة بسبب انفصال أبي وأمي، وعانيتُ من فقدان الاهتمام بي، كنتُ أغضب وأثور إذا لمحتُ في عين أحدهم بادرة إعجاب بشكلي، وتمنيتُ لو كان الإعجاب بجوهر روحي.

ومع الأسف عندما نلتُ ذلك الاهتمام بجوهر روحي لم أصدق نفسي، بل ابتعدتُ بكامل إرادتي.

_ لم ينتهِ الأمر بعد، يمكنكِ الحديث معه، أفهميه مخاوفكِ، ورغبتكِ في الاطمئنان إليه. ولكن حاذري من التعلق، فهو مدمر للنفسية، وصعب التخلص منه.

_ صعبٌ أن أتراجع عن قراري، ربما لم يقبل هو عودتنا مثل السابق، وربما عاقبني على تعذيبه بدون جريرة منه.

_ وربما تغاضى عن كل ذلك، وعاد إليكِ. إذا كان يحبك بالفعل، فالمحب يغفر لحبيبه أي ذنب، ولكن كما قلت لكِ ليس معنى العودة هو الاقتراب الشديد حد التعلق، اجعلي هناك مسافة آمنة لا تتخطيها، يدخل فيها احتمال الفراق لأي عارض، فنحن لا نضمن الظروف وعوارض القدر التي تفاجئنا دائماً بما لا نتوقع، فخيرٌ لكِ الاعتدال في كل أمر حتى في المحبة، ثمّ إنّ مشواركما مازال طويلاً في الدراسة، وأظنّ أنّ الارتباط الرسمي لن يحدث قبل إنهائها.

_ أيشق فيَّ مرة أخرى؟ لا أظن.

_ جربي، لن تخسري شيئاً، ربما سامحكِ، وربما كان من نصيبك في النهاية.

قرأتُ أنّ الفراق هو خاتمة كل حبّ، فآثرتُ أن يكون بإرادتي وليس رغماً عني.

_ ألهذه الدرجة تخشين أن يكون الفراق رغماً عنكِ؟ أتخافين من الألم النفسي حتى لو كان ثمن خوفكِ هو التنازل عن سعادتكِ؟

صدقيني يا حبيبتي الحبّ الحقيقي الذي يحرك قلبك لن تقابلينه إلا مرة واحدة في حياتك ولو أضعتِه، سوف تندمين عليه باقي عمرك، لأنه لن يأتي مرة ثانية، وستكونين قد أضعتِ الكثير من السعادة التي لن تعثري عليها في سواه.

_أتنصحينني بالعودة في قراري والحديث معه؟

_ نعم طالما أنتما لا تغضبان الله وهو على خُلق، وبعد ذلك يأتي لخطبتك، ولا أظن أبويكِ سيرفضان.

_ سأحاول يا خالتي.. أرجوكِ اسألي عني، فأنا في محنة لا أدري متى ستكون نهايتها.

_ معكِ الله يا حبيبتي، أعلم أنه شعورٌ صعبٌ، ولكن يجب عليكِ أن تساعدي نفسكِ للخروج منها.

نادت والدتي علينا لتناول الغداء، فذهبنا وجلسنا جميعاً حول الطاولة، وبعد انتهائنا من تناول الغداء تبادلنا الأحاديث والأخبار.

اتصلتُ بوحيد بعد انصراف خالتي، واعتذرتُ له بأنّني كنتُ مريضة وهاتفي قد سقط مني فانكسر، فتعذر عليّ الكلام معه سوى بعد إصلاحه.

قبِل اعتذاري وصدق ادعائي، ولكنه قال لي:

_هل ستشعرين بالراحة لو علمتِ بموتي؟

فاجأني سؤالهُ، واضطربت خواطري!

فقلتُ له وصوتي يرتعش من الخوف عليه:

_سأموتُ بعدك في الحال.

_كيف ذلك، ونحن لا نتقابل ولا يرى أحدنا الآخر؟

_ ليس مهماً أن نتقابل، يكفي أن أشعر أنك في نفس الدنيا التي أعيش فيها.

_ أنسيتِ كل من حولك؟ ألا تخافين عليهم لو لحقتي بي؟

_ لن أفكر وقتها في سواك. فأنت أنا. ولا بقاء لأحدِنا بغير الآخر.
_ ستنسينني وتعيشين وتسعدين من بعدي صدقيني كل الناس تنسى.
_ليس أنا.. ولا أنت.
_ تخيفينني عليكِ الآن!
_ كُن بخير لأجلي.. لا أريد منك شيئاً. فقط أريد أن أعرف أنك بخير.
_ كانت الدنيا بلا طعم بدونكِ لم أعرف أنكِ صرتِ الأهم في قلبي إلى هذه الدرجة، فأنا عانيتُ من الاكتئاب بسبب بُعدكِ عني بلا سبب، كنتُ أتصور أنّ ذلك لعيبٍ فيّ، ولم أظن أنه لأسباب تتعلق بكِ أنتِ. لا تتركيني ثانية.
_ لا لن أتركك، فأنت هام جداً عندي، وأنا أشعر بكل ما وصَفتَه أنت عن حالك، فنحنُ متشابهان حتى في أحزاننا وندوبنا النفسية، سنبقى معاً دوماً.
أستطيع أن أجزم أنّ وحيد قد تنفس الصَعداء وشعر بالحياة تدب في أوصاله، بعد اتصالي به، فقام من فراشه واغتسل وصلى، ثمّ بدأ يذاكر ما فاته من محاضرات، كما فعلتُ أنا، وأظن أنه استعد للذهاب إلى الكلية في اليوم التالي.
استمرت علاقتنا كأصدقاء بررة طيلة فترة الدراسة، حتى السنة النهائية بالكلية، ولكني بدأتُ أشعر بالضجر والملل ولا أفهم نفسي، كلما اقتربت أرواحنا كلما زاد خوفي من فراقنا، فبدأتُ أتباعد عنه مرة أخرى، شعرتُ بالرتابة، وفجأة وبدون مقدمات انقطعتُ عنه، برغم علمي أنه سيتألم

بسبب فعلي، وبأنني سأفقده هذه المرة إلى الأبد، ولكنّني لم أستطع أن أبقى بعد أن تغيرت مشاعري.

ابتعدتُ عنه، ولكني حاولت الاتصال به بعد مرور شهرين على ذلك، فلم يجبني، ولكنه قام بحظري من كل ما يتعلق به من صفحات، فأبعدني عن كل ما يخصه من أخبار، أظن أنني ارتحتُ نفسياً كثيراً، بعد التخلص من التعلق به، وكأنّ كابوساً كان يجثم على صدري وقد انزاح. ولكنّني لستُ سعيدة، وضميري يؤلمني كثيراً.

قررتُ ألا أدخل في أي علاقة وألا أتزوج، فقد أصابتني عقدة نفسية من الرجال، وكرهتهم جميعاً، ولا أفهم لمَ هذا التحول النفسي الشديد الذي أصابني.

ابني الحبيب

يقول المثل الألماني: الولد مصباح البيت المعتم.

كنتُ أراه سعيداً حين كانت هذه الفتاة تحدثه في الهاتف، كالطير الذي ينتقل بين الأيك بحيوية ونشاط، لم أجد غضاضة في ذلك، طالما أنه ينتظم في دراسته وينجح بتقدير، ولا ينعزل مثل السابق، ولكنّني توجستُ خيفة من نهاية هذه العلاقة، وتمنيتُ لو انتهت بالزواج بعد التخرج، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، وككلّ قصص الحبّ التي نسمع عنها باءت بالفشل.

فقد انقطعت علاقتهما وهو في الفرقة السادسة، أي قبل التخرج بوقت قصير، ولم يخبرني بالتفاصيل أو حتى بالسبب، وبدأتُ أرى علامات الألم النفسي تبدو عليه، وجروح القلب ظاهرة على وجهه، حاولتُ التقرب منه ليعلم أن أمه بجانبه، ولن تتركه إذا تركه العالم كله، ولكنّه لم يسمح لي بذلك، فضَّل الانعزال، وفقد الرغبة في الكلام، لم ينهَر، ولكنه أصبح كئيباً، حتى لون وجهه تغير، وظهرت الهالات السمراء حول عينيه، فهو لا ينام، أعلم أنها فترة صعبة جدّاً عليه، ولكنها ستمضي، أنا قلقلة عليه جداً، ولأول مرة أتحدث مع والده بشأن علاقته به، فطلبتُ منه مرافقته والحديث معه من القلب ليمنحه خبرته في الحياة ربما خفف عنه ما يعاني فقلتُ له:

_ ابنك يمر بصدمةٍ عاطفيةٍ، أتعلم ما يعني ذلك؟

_ كيف عرفتِ ذلك؟

_ ليس مهما كيف عرفت. المهم أن نتصرف فالولد، قد يضيع من أيدينا.

_ ماذا سنفعل؟

_ صاحِب وحيد، تكلم معه، امنحه الثقة ليحكي لك كل ما بداخله، صدقني هذا سيفرق معه جداً، وربما يكون في الفضفضة علاجه.

_ سأتكلم معه، أنا قلقتُ الآن بشأنه كما لم أقلق من قبل. بقي على تخرجه القليل، لا أريد أن يوقفه شيء عن المضي في طريق مستقبله.

_ فلتصطحبه إلى خارج المنزل وتتكلم معه، أفصِح له عن حاجتك إلى سماعه، واذكر له أنك تلاحظ تغيره هذه الأيام وتريد أن تسانده.

_ حسناً سأفعل.

خرج فريد من غرفة المعيشة ودلف إلى حجرة وحيد ليحادثه، وبعد دقائق وجدته يخرج ويخبرني أنه رفض الخروج معه، وأنّه قال لأبيه إنه سينام، ظهرت علامات عدم الرضا على وجهي، فأشاح في وجهي قائلاً، ماذا أصنع له، هو حر، لا تزعجيني مرة أخرى.

لم أتعجب من أسلوب زوجي، فهو لم يحل مشكلة في حياتنا من قبل، دائماً ما يدفن رأسه في الرمال، ويرى أنّه لا مشكلة لدينا حتى وإن كانت ظاهرة للعيان.

علمتُ أنّني قد طرقتُ الباب الخاطئ، فذهبتُ إلى أبي، وشرحتُ له كل ما حدث لوحيد، وبرغبتي في أن يقترب منه، ويحتويه بكلماته، ويبقى معه في أصعب أوقات حياته، فاتصل بوحيد في الحال، وطلب منه أن يمر عليه اليوم بعد انتهاء دراسته، لأنه يريده في أمرٍ هامٍ، فقبِل ابني ذلك، وأخبره أنه سيلتقي به الساعة الثالثة عصراً.

حكى لي والدي ما حدث مع وحيد في لقائهما، وكيف أنّه أخبره برغبته في حديث من القلب مع حفيده، وشيئاً فشيئاً جعله يفتح له قلبه، ويقصّ عليه قصته مع سلوان وكيف غدرت به، وتركته فجأة بعد أن تعلق بها.

أخبرني والدي بعمق الجرح الذي خلَّفه فراق الفتاة في قلبه، وأنه في حاجة إلى وقت طويل ليُشفى منه، وأخبرني أنه وعده بالمرور عليه كل يوم بعد انتهاء الدراسة ليشاركه في أي عمل يقوم به، حتى يشغله عن التفكير في هذه الفتاة، حتى وإن كان لعب (الشطرنج) الذي يجيده ابني، فاستطاع أن يشغل وقته وتفكيره شيئاً فشيئاً، ونصحه أبي بألّا يحاول الدخول في أي علاقة أخرى، إلا بعد وقتٍ طويلٍ، وبعد شفائه التام من آثار ما مربه. ثمّ طمأنني بأنّ وحيد سيخرج من الأزمة، ولكنه حتماً سيتغير بعدها ولن يرجع كسابق عهده.

تغير وحيد وبدأ يعود إلى حياته بعد عدة شهور، واصل دراسته بنجاح، وتخرج أخيراً من الكلية، ومرت عليه فترة الامتياز بهدوء نفسي، ونجاح وأصبح طبيباً مكلفاً بالعمل في إحدى مستشفيات الصعيد، وبالتحديد في

محافظة بني سويف، حاولتُ إقناعه بالنقل إلى القاهرة، ولكنّه قرر أن يبقى في بني سويف إلى أن تتغير الظروف فيبدأ في تحضير (الماجيستير) من أجل التخصص.

ودار بيننا هذا الحوار قبل أن يسافر:

_ هل ستستطيع الحياة هناك بعيدا عنا؟

_ نعم يا أمي. لقد كبرتُ وأستطيع تحمل مسؤوليتي وحدي.

_ من سيقوم بخدمتك؟ كيف ستعد لنفسك الطعام والشراب من سيغسل لك ملابسك؟

_ ما بكِ يا أمي أنا سأحضرهنا في نهاية كل أسبوع، وستفعلين لي كل ما تريدين المهم ألا تقلقي عليَّ.

_ أعلم أنك رجل، وستدبر أمرك، ولكن قلبي خائف عليك. أنت لم تتركنا من قبل وتبتعد كل هذه المسافة، كيف سنأتي إليك إذا احتجت إلى شيء؟ أريد الاطمئنان على حالك.

_ سأحدثكِ في الهاتف كل يوم، وستريني أيضاً عبر الإنترنت، ثمّ إنني لن أعجز عن تدبير ما يلزمني، ولي زملاء سيذهبون معي في نفس المدينة فلا تقلقي.

_ ستأخذ معك كل ما أعطيه لك من طعام ولا تعترض كعادتك.

_ سأفعل كل ما يجعلك مطمئنة عليَّ.

الأيام في غيابه لا تمر، وأنا لا أكف عن التفكير فيه، ابني الحبيب الذي ليس لي سواه، كنتُ مطمئنة وهو أمام عينيَّ أما الآن فيجافيني النوم.

أصبح المنزل بلا طعم، أتجول فيه كثيراً، وأقف بجوار التخت الذي كان ينام عليه، والطاولة التي كان يتناول عليها الطعام، أو يضع عليها الحاسوب الخاص به.

كل شيء يُعلن افتقاده له. دموعي تنساب من عيوني دون إرادة مني، ولا أملك اعتقالها بين أجفاني.

أحادثه في الهاتف كثيراً، ولكن لا أظهر له قلقي عليه حتى يستطع مواجهة الإحساس بالغُربة.

أنتفض كلما دق جرس الهاتف، فأنا دائماً خائفة عليه، ويبدو على وجهي ملامح القلق حتى إنّ والدي نصحني بأن أستشير طبيباً نفسياً، ربما كتب لي بعض المهدئات لكي أنام، فقلة النوم أصابتني بالعصبية، وأثرت على عينيَّ.

ولكنني أهملتُ كعادتي، ولم أفعل. اكتفيتُ بتناول الينسون أو اللبن الدافئ، وقراءة بعض الأذكار فور دخولي إلى الفراش لكي أغفو.

أما وحيد فيبدو لي أنه تعايش مع الوضع الجديد وأَلِف المكان، كما أنّه يشارك زملاءَه في الشقة وفي الطعام والعمل. أسعدني هذا التغير في شخصيته، فكم كنتُ أتمنى أن يندمج في المجتمع مع أقرانه لكي يستطع العيش بعدي.

مرت الأيامُ والسنوات وانتقل وحيد للعمل في مستشفى حكومي بالقاهرة، وعاد إلى بيته مرة أخرى، وكنتُ قد قمتُ بتجديد كل ما في الشقة من أثاث وطلاء للحوائط، وتنظيم جديد لكل شيء، حرصتُ على أن نبدأ جميعاً حياة جديدة، بطاقة أمل في مستقبل مختلف، وأن ننسى كل ما مر بنا من صعاب.

وراق هذا التغير لأسرتنا الصغيرة بما فيها البنتين ووحيد الذي انبهر بالألوان والديكورات، والأرضية الخشبية التي كان يريدها منذ زمن طويل في حجرته، أعجبه أنني لا أنسى أبداً كل ما يروقه.

ولا سيما أنها تزامنت مع حصوله على الماجيستير بتقدير امتياز، وقد سجل رسالة الدكتوراه التي آثر أن تكون في الطب النفسيّ، الذي أحبَه جداً وتفوّق فيه، وبدأ تدريباته في مستشفى العباسية للأمراض العقلية.

هيستريا

ذكر العلامة ابن القيم عن العقل أنّه: آلةُ كلِّ علم وميزانُه الذي يُعرفُ به صحيحه من سقيمه وراجحُه من مرجوحه، والمرآة التي يُعرف بها الحسن والقبيح.

أولى الحالات التي كُلِّفتُ بعلاجها والتي لا أنساها، كانت لامرأة دخلت المستشفى بعد أن أصيبت بالشلل في أطرافها، ولا يوجد أي سبب عضوي لحالتها، كما أكد الأطباء المختصون، وبعد الفحوصات نصح الأطباء أسرتها باصطحابها إلى طبيب نفسي، ولكن ضيق الحال حال دون ذلك، فجاؤوا بها إلى مستشفى العباسية.

وبدأتُ في قراءة ملف الحالة:

الاسم: منال السيد علي.

السن: أربعون سنة.

تاريخ ظهور الأعراض لأول مرة **23** نوفمبر سنة **2019**

الأعراض:

_ انفعال وصياح وسرعة نبضات القلب.

_ تصلب في عضلات البلع.

_ تصلب في عضلات الأطراف.

_ سيلان اللعاب أحياناً، وفقدان حاسة التذوق.

الأسباب:

لم يتم التوصل إليها

طلبتُ رؤية المريضة، فتم إدخالها إلى حجرة الكشف، وهي جالسة على مقعد ذي عجلات، ترتدي الحجاب وثوباً أسود اللون، وتبدو هادئة تماماً.

بدأتُ في سؤالها:

_ أتسمحين لي أن أساعدك لكي يتم شفاؤك؟

فردت عليَّ بنظرة حائرة وقالت:

_ وهل يوجد لي علاج؟

_ طبعاً يوجد لكِ علاج، إذا ساعدتِني وكان عندكِ الأمل في الشفاء والرغبة في ذلك.

_ أريد أن أمشي ثانية. أرجوك.. أولادي في حاجة إليَّ.

_ هل زوجك موجود؟

_ لا.. غير موجود، ولا تذكره لي، المهم أبنائي.

_ عندك كم ابن وابنة.

_ ثلاثة، اثنان من البنين وبنت واحدة، وهم في المرحلة الإعدادية بين كل ولد والثاني سنة.

ستعودين كما كنتِ وأفضل، ولكن أخبريني عن سبب ما وصلتِ إليه؟ أو بمعنى أدق صفي لي أول يوم تظهر عليكِ فيه علامات المرض.

_ لا أتذكر شيئاً.

_ سأعطيكي مهدئاً بعده تنامين وغداً سوف أراكِ مرة أخرى.

_ إن شاء الله.

كتبت لها عقاراً مهدئاً وباسطاً للعضلات وأعطيتُ (الروجتة) للممرضة التي اصطحبتها إلى العنبر الذي ستبقى فيه.

أعلم أن مثل هذه الحالات لا ترغب في الكلام بصراحة ولا تفتح قلبها بسهولة.

وفي اليوم التالي طلبتُ رؤيتها، فتم إحضارها لي في حجرة الكشف.

فبادرتها بالسؤال:

_ كيف حالِكِ اليوم؟

_ الحمدُ لله نمتُ جيداً بالأمس.

_ عظيم جداً.

ثمّ بدأت في إعطائها حقنة للاسترخاء، وأنا أعلم جيداً أنها ستجعل جسمها في حالة من الهدوء المشابه للنوم، بينما يبقى عقلها واعياً، لتتحسن استجابته للرد على أسئلتي، ولكي أقضي على القلق الذي يرافق البوح بما ستفضي به إليّ، ثم لأتمكن من بث الأفكار الخاصة بعلاجها.

وبعد دقائق تأكدتُ من بدء مرحلة العلاج.

سألتها:

هل علاقتك بزوجك كانت جيدة؟

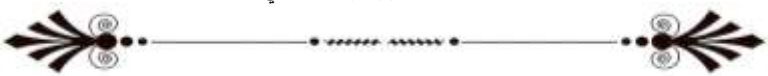

_ لا.. أنا تزوجته رغماً عني، بإرادة والدي الذي كان يريد أن يخف الحِمل عنه، وفور أن أنهيتُ تعليمي وحصلتُ على الثانوية العامة، تقدم لي حمدي ووافق أبي.

_ هل كان يسيء إليكِ، يهينك، أو يضربك؟

_ كان يهينني بالألفاظ النابية، ولكن لم يضربني، وإن كانت كلماته تؤلمني أكثر من الضرب بمراحل، فلو ضربني كان أهون عليّ من وصفي بأنني لستُ أنثى أساساً، وهو لا يحتسبني على النساء.

_ هل طلبتِ الانفصال عنه؟

_ نعم كثيراً، ولكن أسرتي رفضت أن أعود إليها، ومعي أولادي، وقال أبي إنه لن يستطيع تحمل تكاليف معيشتي أنا وأولادي معه. فصبرتُ، وكتمتُ آلامي، وانقطعتُ عن أسرتي وعشت لأجل أن أربي أولادي فقط.

_هل زوجك مازال على قيد الحياة؟

_نعم.

_ ماذا حدث يوم إصابتكِ بالشلل؟

_ اتصلت بي سيدة تُدعى سماح وأبلغتني أنها زوجة حمدي الثانية، وأنه قد تزوجها منذ عام.

_ أنتِ لا تريدينه. فلمَ غضبتِ لزواجه بأخرى؟

_ شعرتُ بجرح كرامتي أكثر، وكانت صدمة شديدة، صرختُ بأعلى صوتي في الهاتف، وأحسستُ بالذهول، وبأني لا أستطيع نقل قدميَّ من موضعهما، وحتى عنقي لا يتحرك بصورة طبيعية، وكأنّني لا أستطع ابتلاع ريقي.

وإذا قلتُ لكِ ألا تفكري في زوجك، واعتبريه غير موجود، ولا يمثل لكِ شيئاً، عيشي لأولادكِ فقط، لكي تقفي على قدميكِ مرة أخرى.

_ سأفعل ما تنصحني به.

بعد مرور ساعة أفاقت منال، وقالت:

_ أشعر بالصُداع والدوار ماذا حدث؟

_ أبداً لا شيء، هذه أعراض مؤقتة، وسوف يتم شفاؤكِ سريعاً.

الآن ستستريحين في غرفتك، وسأراكِ غداً.

اصطحبتها الممرضة التي سحبت المقعدَ ذا العجلات إلى غرفتها.

وجلستُ أفكر في حالة منال، من الواضح أنها امرأة حساسة جداً أصيبت بالهيستيريا، نتيجة صدمة زواج زوجها بأخرى، حتى إنّها تعتبره مات كما ذكرت لي في أول لقاء.

ولكنّني أعتقد أنها ستشفى إن شاء الله.

في اليوم التالي استيقظتُ من نومي أشعر بالنشاط، أخبرتني أمي بأنني أبدو متفائلاً والبِشر يظهر على وجهي. فقلتُ لها إنني أعالج أولى حالاتي في مستشفى العباسية، وإنّها ستُشفى على يدي بإذن الله.

فدعت لي من صميم قلبها أن يوفقني الله، ويجعل الشفاء على يدي لكل من أعالج.

وفور وصولي إلى المستشفى طلبتُ إحضار منال إلى حجرة الكشف.

وعند دخولها أخبرتها أنها قوية وشخصية ثابتة على مبدئها، وأم فاضلة لأنها فضَّلت تربية أولادها وراحتهم على راحتها، ولكن للتضحية حدود، فلن تنال الشكر الذي تتوقعه في النهاية.

ولكنها ستتخطى الأزمة بنجاح وستقف على قدميها.

كما أخبرتها أنها حساسة جداً وهذا هو سبب حالتها النفسية، وإذا اتبعت نصائحي سوف تشفى.

فقالت لي: أتمنى ذلك.

_ أريد منكِ أن تعملي وتشغلي كل وقت فراغك فيما يفيد، وألا تفكري في زوجك وكفاكِ أنكِ مازلتِ مع أولادك.

ستربينهم أفضل تربية وسيقدرون ما تفعلينه من أجلهم في المستقبل، وأنتِ تستحقين كل تقدير. إذا أردتِ الطلاق فلا تتردي، واستقلي بحياتك في شقتكِ مع أبنائك، واعملي وأنفقي عليهم، ولا تنتظري شيئاً من أحد. أنتِ وحدكِ قادرة على تحمل المسؤولية.

والآن هيا قفي على قدميكِ.

_ هل سأستطيع؟

_ جربي الآن هيا، انهضي من على المقعد.

تحاملت على نفسها، وبدأت في رفع جسدها من على المقعد شيئاً فشيئاً، حتى وقفت على قدميها.

ابتسمتُ وضحكت هي، وهي تعود لسابق عهدها، وتقف مرة أخرى، وتحمد الله وتمطرني بوابل من الشكر والعرفان، وأنا ممتن جدّاً لله أن أصبتُ النجاح في أولى تجاربي كطبيبٍ نفسيّ، يمكنه تغيير حياة البشر إلى الأفضل.

أُزيلَ الحاجز بيني وبين المرضى بعد نجاحي في أولى اختباراتي في العمل، وشعرتُ بالثقة في نفسي كطبيب، فبدأت أمارس كل ما تعلمته، على الحالات التي أصادفها.

وبدأت في علاج رجلٍ مصابٍ بحالةٍ نفسيةٍ تجعله يشك في كل من حوله، ودائماً ما يظن أن أسرته تضع له السم في الطعام، أو تريد قتله، وهي حالة مرضية تسمى جنون الارتياب، وكانت واضحة عليه جداً علاماتها، حيث كان في سن الخمسين ورافضاً للزواج، ويشعر بالقلق والارتياب في إخوته، تدور حياته كلها حول فكرة الشعور بالاضطهاد، ورغبة من حوله في التخلص منه، رغم أنه ليس غنياً، ولا يوجد ميراث مثلاً للتنازع عليه، والرغبة في التخلص منه بسببه، جلستُ مع الرجل وتحدثت كثيراً، حتى اكتسبتُ ثقته، وبدأتُ أطرح عليه أسئلة علمتُ منها أنه نشأ مدللاً في طفولته، ولكن سرعان ما عانى من التمييز ضده بسبب شكله الدميم، وبأنّ

زملاءَه في المدرسة يبتعدون عنه، فشعر بالدونية، والخوف وسقط في بئر المرض النفسيّ.

أعطيته جرعات من التدعيم النفسي وبعض الأدوية، فتحسنت حالته كثيراً، وبدأت الأوهام التي تنتابه في الانزواء.

وهكذا بدأتُ أنال الثقة في نفسي كطبيب يجيد سبر أغوار النفوس البشرية، حاولتُ أن أطوي الماضي، ولكني فشلت في الانجذاب لأي فتاة من أجل الزواج، وتكوين أسرة والاستقرار.

كنتُ دائماً أخشى الغدر، فآثرتُ البقاء بمفردي على أن أظلم زوجة لا ذنب لها في عقدي النفسية.

تم الإعلان عن افتتاح كلية للطب البشري جديدة في إحدى الجامعات بأحد مدن دولة المغرب وسيتم تعيين عدد من الأطباء من مختلف التخصصات فيها، من المغرب ومن خارجها، وتم الإعلان في الصحف اليومية لمن يرغب في العمل بالجامعة الجديدة على أن يكون اختصاصياً على الأقل، وكنتُ قد أنهيتُ مناقشة رسالة الماجيستير والعمل بمستشفى العباسية، فلدي خبرة لا بأس بها في مجال عملي، وعندما قرأتُ الإعلان وجدتُ في نفسي الرغبة في السفر والانتقال للعيش في بلاد جديدة عليَّ، ولا سيما أنّها دولة عربية، وسأجد فيها إخوة يفهمونني، برغم الحياة الجديدة هناك.

فأرسلتُ ملفي، وفيه كل شيء عني وعن دراستي، وانتظرتُ النتيجة، وكلِّي يقين بأنني سيتم قبولي للعمل هناك.

بعد مرور شهر تقريباً، جاءت الموافقة، وتحدد موعد السفر بعد أسبوعين من تاريخه.

أبلغتُ أسرتي، وغضبت والدتي لعدم إخبارها منذُ البداية، واتهمتني أنني بيَّتُ نية السفر دون إخبارها لعلمي باعتراضها، بينما مرر أبي الأمر كأنّ شيئاً لم يكن.

لم يفاجئني رد فعله، فهو المتوقع بالنسبة لي. أما أمي فقد حزنتُ جداً من أجلها وجرحت دموعها قلبي، وتمنيتُ لو ألغيتُ السفر وكل شيء من أجلها، ولكنها تراجعت وعادت فقالت لي بابتسامة منكسرة:

_ ما فيه صالحك افعله، ولا تفكر في أمري، سأكون سعيدة متى كنتَ أنت سعيداً، وموفقاً في حياتك ومستريحاً.

أثرت في نفسي كلماتها، ومرّ على خاطري فكرة أنها من الممكن أن تفارق الحياة دون أن أراها، وأنا بالخارج.

فجثوتُ على ركبتيَّ، وقبلتُ يديها وبكيت. رَبتت على رأسي وكتفي، وكأنها قرأت ما دار بداخلي فقالت لي:

_ لا تخف يا بني، ربما مدّ الله في عمري حتى أراك مرة ثانية، الله دائماً يقدر لنا ما في صالحنا، توكل عليه فهو حسبنا جميعاً.

أعددتُ حقائبي بدون تردد، ورتبتُ أوراقي المطلوبة للسفر، ثم ودعتُ أسرتي وكل من أعرفهم.

وقد اصطحبني وديع زوج أختي كريمة إلى المطار. حيث كانت طائرتي في الساعة السادسة صباحاً من القاهرة إلى الرباط، فوصلتُ إلى مطار الرباط الدولي في تمام الساعة العاشرة صباحاً، حيث استغرقت المسافة ما يقارب الخمس ساعات، وفرق التوقيت بين الدولتين بتأخير الساعة مدة ساعة واحدة.

ووجدتُ في المطار أحد العاملين في إدارة الجامعة ينتظرني لكي يوصلني إلى الجامعة لاستلام العمل، ثمّ توجهتُ إلى الاستراحة المخصصة للأطباء الوافدين من الخارج، وكانت على مقربة من االكلية ومن المستشفى الجامعي الملحقة بها، على بعد ثلاثمائة متر تقريباً.

فوضعتُ حقائبي في الشقة المخصصة لي، وعلمتُ من حارس البناية أنه يوجد عدد من الأطباء قد وصلوا بالفعل خلال الأيام القليلة الماضية، ومنهم خمسة من المصريين. وكل منهم قد استلم شقته. فشعرتُ بالراحة والألفة لسماع ذلك.

كانت الشقة في الطابق الثاني، مربعة الشكل بها حجرتان وردهة، وشرفة تطل على الشارع الرئيسيّ، والأثاث مع بساطته يبدو مريحاً جداً، حيث وُضِعَ عددٌ من الكراسي الفوتيه في الردهة وأريكة عريضة أمام التلفاز، ومكتبة صغيرة تحتوي على عدد قليل من الصحف والمجلات، وبجانبها

طاولة مستديرة حولها أربعة مقاعد يبدو أنّها مخصصة لتناول الطعام، وبالداخل حجرتان للنوم بكل حجرة تخت، ودولاب للملابس، ومكتب صغير ومقعد. الشقة نظيفة جداً، وتبدو البناية جديدة وتم طلاؤها حديثاً لأنّ رائحة الطلاء كانت ظاهرة جداً وتملأ المكان.

استلقيتُ على التخت قبل إفراغ حقائبي، ثُم غرقتُ في نومٍ عميقٍ حتى المساء.

استيقظتُ الساعة الثامنة مساءً، فأفرغتُ حقائبي، ورتبتُ ملابسي، ودق جرس الباب، فاندهشتُ، أنا لا أعرف أحداً بعد، من ذا الذي سيزورني في أول يوم لي هنا!

فتحتُ الباب، وكان الطارق اثنين من الرجال، عرّفاني بنفسيهما على أنّهما طبيبان مصريان مثلي، ويريدان قضاء بعض الوقت معي، تعارفنا وتناولنا العشاء معاً، واصطحباني إلى مسكنهما لكي أعرفه ونتبادل الزيارة، فوعدتهما بذلك.

مرت الأيام متشابهة ولم يكسر حدة الملل سوى ذهابي مع زملائي الأطباء المصريين والعرب في جولة سياحية في نهاية كل أسبوع للتعرف على أماكن جديدة بالمغرب.

لم يكن أحد من الأطباء الوافدين قد تزوج بعد، لذا كنا جميعاً نتعاون في إعداد الطعام يومياً، ونتشارك في تدبير أمور حياتنا، وقد راقتني المغرب والمدن الإسلامية بمساجدها وبتاريخها الشامخ، وعراقتها وأصلها، وكان

أهلها في مُنتهى الطيبة، والتعاون والألفة، يحترمون الأطباء جداً، خاصة الأساتذة في الجامعة، ويكنون لهم كل تقدير.

وقد ورد عدد من المرضى النفسيين على مستشفى الجامعة، وبفضل من الله تمت مساعدتهم لتخطي أزماتهم، وتحسنت حالتهم بعد تناول العلاج الذي أصفه لهم.

جاء موعد جولتنا الأسبوعية في أحد المناطق السياحية، وأخبرنا أحد زملائنا الأطباء المغاربة بأنّ الرحلة هذه المرة مختلفة، لأنّنا سنزور منطقة يثار حولها الأخبار منذ زمن بعيد، وقد حيّرت الناس منذُ القِدم، فسألته عن اسمها، فقال: سجن قارا.

سجن قارا

يقول أحد الحكماء: (زُر السجن مرة في العمر لتعرف فضل الله عليك في الحرية)

للمرة الأولى أسمع اسم سجن قارا، قصّ عليّ جمال صديقي حكاية هذا السجن العجيب، فقد تم إدراجه ضمن أكثر الأماكن خطورة في العالم، حيث إنّه السجن الوحيد بدون أبواب، ومن دخل إليه من المستحيل أن يخرج.

اندهشتُ جداً مما سمعت، وقلتُ له:

_ لماذا سنذهب إليه إذاً؟

_ لأنّها فرصة أنّنا نعمل ونعيش بالمغرب فكيف لا نراه؟ للتعرف على المبنى الغريب الذي حيّر العالم في كيفية بنائه، واستخدامه في الماضي البعيد من أجل حبس المجرمين والخارجين على القانون.

_أظنه مكاناً مقبضاً، وأخشى ألا نستطيع الخروج منه كما قلت.

_ لن ندخل بداخله، فهو عبارة عن متاهة كبيرة، متعددة الطرقات، لا أول لها ولا آخر.

_ شوقتني لزيارته. سآتي معكم.

وفي الصباح خرجنا جميعاً أنا وجمال ومحمد ورؤوف ومهدي.

استقللنا سيارة كنا قد استأجرناها، واتجهنا إلى مدينة مكناس حيث يقع السجن العجيب. بعد أن وصلنا إلى المدينة اتجهنا مباشرة إلى مبنى السجن، وصاحبنا خلال الجولة السياحية فيه أحد المرشدين الذي بدأ بالحديث عن تاريخ المبنى فقال:

السلطان المولى إسماعيل بين عامي **1672** و**1727** اتخذ مدينة مكناس عاصمة للمغرب في فترة سلطانه، وكان سلطاناً قوياً، حافظ على المغرب من الاحتلال، وكوّن لها جيشاً كبيراً، وانتشرت الشائعات عن السلطان، وعن طرق التخلص من أعدائه، ولكنها معظمها لا يعدو الشائعات، وقد قام بإنشاء هذا السجن لكي يكون نوعاً من أنواع الإعدام المرعبة وليس للحبس فقط.

رأينا السجن عبر شبكة الإنترنت خلال فيلم تسجيلي، وكان عبارة عن قاعات كثيرة متداخلة ودهاليز مظلمة، وممرات كثيرة فوق الزنازين، وكل ذلك لكي يتم إدخال السجين من ثقب قد اخترق الممر ويترك في الزنزانة منفرداً دون أي مصدر إضاءة، وقال المرشد: إنه حتى يومنا هذا لا يعرف أحد الشكل الهندسي الحقيقي للسجن، ولا حتى مساحته التي يقال إنّها تمتد أكثر من مساحة مدينة مكناس تحت الأرض.

والبعض يقول: إنه يتكون من طوابق أرضية لا يعرف عددها، ويصل عمقه إلى سبعمائة متر تحت الأرض.

وكان يتم وضع الأسرى من جيوش الأعداء به، وكذلك المعارضين لحكم السلطان، واختلف الرواة عمن بنى السجن، وقيل هو خبير برتغالي كان أحد أسرى السلطان وقد وعده بإطلاق سراحه حين استعان به السلطان لتشييده، وسمي على اسمه.

وقيل إنّه يتسع لألف سجين من الأسرى.

وقيل عن هذا السجن البشع: إنّ الداخل إليه مفقود والخارج مولود، مما يدل على صعوبة الخروج منه.

فالسجن عبارة عن متاهات متشابكة، وكان يتم إدخال السجناء من فتحة في سقف السجن وكذلك يتم إدخال الطعام إليهم، وكان معظم السجناء فيه من الأسرى. وقيل: إنّ للسجن مخرجاً واحداً سرياً في مكانٍ مجهولٍ، لا يعثر عليه إلا بمعجزة. كنا نستمع إلى المرشد بالكثير من التعجب والدهشة، فما الذي يؤدي بالعقل البشري إلى تشييد مثل هذا المكان المرعب، وأي نفسية تلك التي توافق على تعذيب البشر بهذه الطريقة الفريدة المخيفة. اقتربنا من السجن وسمعنا من أحد الزوار حكاية لا نعرف مدى صحتها:

وهي أنه في الثمانينيات من القرن الماضي جاء فريق استكشاف من إسبانيا ليكشف الغموض عن هذا السجن، وليعرفوا المساحة الحقيقية له، وليعرفوا ما الذي يصيب من يدخله بالجنون كما يقال عنه.

وأحضر الفريق المعدات الحديثة للتصوير ودخلوا إلى السجن، ويا للعجب لم يظهر لهم أثر بعد ذلك، ولم يعثر عليهم حتى اليوم!

وفي منتصف التسعينيات حضر فريقٌ آخر من فرنسا للمهمة نفسها، وتكرر ما حدث للبعثة الاستكشافية الأولى مع البعثة الفرنسية. وبعدها أقامت السلطات منطقة محددة للزوار فقط ليأخذوا فكرة عنه، وتم منعهم من التوغل بداخله، كما أقامت باباً جديداً له ليس هو بابه الحقيقي، ولكن ذلك الباب يؤدي إلى المنطقة المسموح بها للزوار. بدأنا النظر إلى المكان حين دخولنا إلى القاعة بالكثير من الضيق، ومكثنا فيه عدة ساعات، ثم نظرنا حولنا فلم نجد جمال، صحتُ بأعلى صوتي:

جمال... جمال... أين أنت؟

انتبه باقي الأطباء إلى اختفائه، وعلى الفور أبلغنا الحراس والمرشد إلى اختفاء زميلنا.

فبحث الجميع حول المكان وفي الأماكن المخصصة للزوار دون فائدة.

بدأ الشك يتسرب إلى نفسي، وشعرتُ بالخوف الشديد على جمال مما قد يلاقيه بعد كل ما سمعناه عن هذا المكان الغامض.

فطلبنا من المرشد أن يدخل أحد الحراس للبحث عنه داخل السجن، فراوغنا، وأخبرنا أنّ ذلك غير مسموح به، وأنه بعد مرور فترة زمنية لا تقل عن أربع ساعات على اختفائه سيتم الاستعانة بخبراء آخرين للبحث داخل دهاليز السجن.

بقينا بين عصبي منفعل وخائف يدعو الله منتظرين، وبعد مرور ساعة لم أطق الانتظار، فأخبرتهم بأنني سأدخل للبحث عنه دون التوغل بداخل السجن.

كلهم اعترضوا وأوقفوني، وبدأنا ننادي بصوت مرتفع على جمال لعله يهتدي إلى طريق الصوت ويتجه صوبه إلى الخروج.

كان الأمر صعباً جداً علينا، وحاولنا الاتصال به هاتفياً كثيراً، ودائماً كان الرد أنّ الهاتف خارج التغطية، ولا شبكة بالداخل.

ثم صمتنا بعد أن استنفدنا كل ما لدينا من محاولات، ولم يبقَ إلا الدعاء له، وقررنا ألا عودة بدون جمال.

وفجأة سمعنا صوت سعال ونهجان يتسرب إلينا من داخل السجن، فركضنا مسرعين نحو الصوت، وكان هو.. نعم هو جمال.

انطلقنا لعناقه والسلام عليه، وحمداً لله على عودته، ثمّ قلتُ له بصوت مرتفع نسبياً:

_ هل بعد ما سمعناه جميعاً يوجد عاقل يُقِدم على ما فعلته؟

_ فقال جمال بصوت متهدج: لا أدري كيف فعلتُ ذلك، كنتُ مقرراً لدخوله حتى قبل أن نأتي لهذه الزيارة، فأنا أعشق الغموض وكشف مثل هذه الأسرار.

فقال رؤوف:

_ كيف خرجت؟ أقصد كيف عثرت على الباب؟

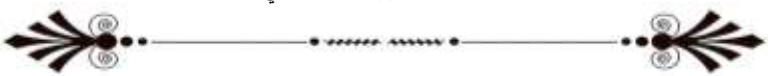

_ وجدتُ شريطاً أحمر اللون، رأيته بشعاع هاتفي، وسرتُ معه لأنني اعتقدتُ أنّ أحدهم تركه كدليل إلى الباب.

_ فقال محمد: هيا.. هيا بنا من هذا المكان بسرعة، فيكفينا ما أصابنا من ذعر، ونحمد الله على سلامتنا جميعاً.

وانصرفنا إلى السيارة التي كانت تنتظرنا حتى نهاية الرحلة.

وفي الطريق سألتُ جمال عما رأى بالداخل؟

فأغمض عينيه، وذكر لنا أنه شعور صعب جداً ألا تجد سبيلاً للنجاة، وتكون بداخل متاهة لا نهاية لها، وقال:

لقد كنتُ ضائعاً مرتبكاً أفقد ثقتي بالنجاة كلما اقتربت من سرداب أو دهليز ويسلمني للآخر دون نهاية، والعجيب أنني سمعتُ أصوات بكاء وصراخ بالداخل لا أعرف مصدرها.

_ فقال مهدي: ربما كان مسكوناً بالأشباح، بسبب كثرة من تعذبوا وماتوا بداخله.

_ قلتُ لهم: إنها تجربة غريبة من الصعب علينا جميعاً نسيانها، وأتمنى أن نتعلم جميعاً منها درساً هاماً في حياتنا.

فقال جمال:

_ نعم، درسٌ لا يُنسى لقد نجّاني الله بمعجزة، وعثرتُ على باب الزوار في النهاية وخرجتُ منه، ولولا دعائي وثقتي بالله تعالى لما كُتبت لي النجاة.

فأردفتُ:

_ ونتعلم أيضاً ألا ندخل أنفسنا فيما لا يهمنا ولا تؤتمن عواقبه، فلا يكفي مجرد الرغبة في المعرفة، الأهم هو الأمان فيما نقدم عليه.

وصلت بنا السيارة إلى البناية السكنية التي نقطنها، وانتهى اليوم باستغراقنا في نومٍ عميقٍ.

ابني عاد إلى مصر

العالم كتاب، وأولئك الذين لا يسافرون يقرؤون فقط صفحة واحدة."
القديس أوغسطين

عاد وحيد ابني من المغرب بعد مرور خمسة أعوام، وقد صار عمره زهاء الخامسة والثلاثين، وقد بدأت الشعيرات البيضاء تغزو مقدمة رأسه، منبئة عن تجارب غفيرة مرت بفلذة كبدي.
لم أدخر جهداً في الحفاوة بوحيد، وجُلّ ما كان يشغل بالي هو الاطمئنان عليه، وتمنيتُ لو حملتُ أطفاله بين ذراعيّ.
شرعتُ في إبداء رأيي لابني، وكلّيّ أمل أن يفهمني لتضوع حياتي بالأمل من جديد. ولكنه أنكر عليَّ مجرد التفكير في الأمر، وعَظُم عليه أن أتعدى على حريته في تسيير حياته كيفما يتراءى له.
وكان حزني شديداً، وشعوري بانطفاء الأمل في مقلتيَّ ظاهراً للعيان.
حتى إن ابنتي كريمة قالت لي ذات يوم:
_ هوّني على نفسكِ يا أماه، ودعيهِ وشأنه، هل جديدٌ عليكِ طريقة تفكيرهِ؟
_ ولكنّني يابْنتي ظننتُ أنّ الغُربة، وتجارب الحياة قد غيرت فيه ما غيرت.
ولا يسعني إلا أن أكتم حسرتي في قلبي على شبابه الذي يولي هارباً دون أن يشعر، وسيندم على ما فرط يوماً ما.

جلستُ فوق التخت الخشبي العتيق المصنوع من خشب الأرو في غرفتي، مغمضة العينين، سابحة في عالمي الخيالي الأثير، وتضوع أجواء الغرفة برائحة خشب الآراك التي انبثقت من البخور الذي أفضل رائحته، وأشعلته منذ قليل، وإذا بوحيد يطرق على الباب طرقات خفيفة، ويستأذن في الدخول، فسمحتُ له به، فإذا به يعتذر لي عما بدر منه سابقاً، ويعدني أن يفكر جدياً في الأمر من أجلي فقط.

فقلتُ له:

- لا يصح يا بني أن تبدأ حياة جديدة بدون رغبة صادقة منكَ في ذلك، فهذا من دعائم نجاح حياتك. ولمَ لا تريد ذلك؟ ألست الآن تقترب من سن النضج وقطار العمر لا ينتظر أحداً، حاول أن تلاحقه وتعثر لنفسك على مكان فيه قبل فوات الأوان.

- لكِ ما تريدين يا أمي المهم عندي رضاكِ.

لم أجد بُداً من إنهاء الحديث بعد أن نبت الأمل في قلبي من جديد.

كنتُ ألاحظ أنه يجلس في حجرته بعد أن يؤوب من عمله لساعات طويلة دون الخروج منها، وكنتُ أتعجب ما الذي يفعله فيها.

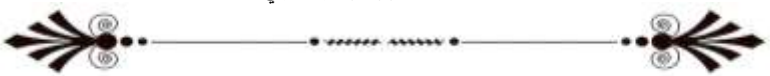

وشيئاً فشيئاً حاولتُ الإنصات عليه ليطمئن قلبي، فسمعته يتكلم بصوت مسموع ويضحك أحياناً، ويستمر ذلك لساعات يومياً، فقلقتُ عليه. فمن يا ترى سيحادثه كل هذه المدة دون كلل أو ملل. وفي النهاية سألته بصيغة ودودة لا تضايقه:

_ مع من تتحدث يا قرة العين يومياً؟ فأنا سمعتُكَ بالمصادفة بالأمس وأنا أمر أمام حجرتك.

_ أبداً يا أمي إنني أعمل.

_ تعمل! كيف ذلك؟

_ مثل الجميع اليوم. فالعديد من المرضى النفسيين أصبحوا يفضلون جلسات الحديث (أون لاين) للعلاج على أن يحضروا إلى عيادة الطبيب، كما أرسل إليهم وصفة العلاج في الروشتة على موقع الواتس آب، ويقومون بطباعتها وشراء الدواء.

_ وكيف تتقاضى ثمن الكشف أقصد الجلسات؟

_عن طريق (الفيزا كارد) البنكية يتم التحويل إلى حسابي في البنك.

_ هل يفلح هذا العلاج مع المرضى؟

_ طبعاً يا أمي. يثمر ويأتي بنتائجه ولا أترك المريض حتى أطمئن للشفاء وتحسن حالته.

_ بالتوفيق يا بني.

وخزٌ في قلبي

"**الحنين هو ذاكرة القلب.**"

[جبران خليل جبران]

كانت تنتابني لحظات تفكير بعمق في الحالات التي أقوم بفحصها عبر الإنترنت، ولكن أكثر مَن حيرتني حالة امرأة أخبرتني أنها في العقد الرابع من عمرها، تزوجت لمدة خمس سنوات، ثمّ حصلت على الطلاق بعد خلافات عديدة مع زوجها، كان يعاملها بحب شديد في بداية حياتهما، وما إن أنجبت وصارت أماً لبنت جميلة صار فظاً، يصيح طيلة ساعات تواجده في المنزل، لا يحدثها إلا بلهجة آمرة، ولا يحلو له إمطارها بالطلبات سوى وهي منشغلة بالطفلة.

حاولت ألا تؤجل له طلباً، فكانت تتحمل ضغطاً زائداً على أعصابها، وتمنت لو استطاعت يوماً أن تنال منه بعض التقدير، ولكن هيهات، بدأت تشكو من أعراض صحية شديدة، منها حساسية بالجلد وبثور بالوجه، والقولون العصبي، وعدم انتظام ضغط الدم أحياناً يكون مرتفعاً، وأحياناً يهبط.

ترددت على عيادات الأطباء دون جدوى ودون شفاء، وفي النهاية أشار عليها أحد الأطباء بزيارة الطبيب النفسي، فبدأت تتواصل معي، وبدأتُ معها الجلسات ولفت نظري لهجة اليأس في حديثها، لم يكن من السهل حثها على أن تفتح قلبها وتحكي ما بداخلها، لكنها كانت تقاوم وتكابر، رفضت أن أراها أثناء الجلسات، وذكرت لي أنّها تريد الحديث فقط بالصوت منعاً للحرج، وتعجبتُ من طلبها، ولكنني وافقت حتى أعرف مشكلتها الحقيقية، ولماذا تخجل من مظهرها، كان سبر أغوارها عويصاً، وكنتُ أتمنى لو استطعتُ تنويمها مغناطيسياً لتحكي، ولكنّ ذلك صعب دون رؤيتها وجهاً لوجه.

سألتها عما تتمنى، فأخبرتني أنّ لا أمل لديها في شيء، وأنها تشعر بعدم استحقاقها لأي سعادة، بل تعتقد أن من هي مثلها يجدر بها أن تموت.

تعجبتُ في البداية واعتقدتُ أنّ الموضوع لا يعدو كونه شعوراً بالدونية، أو شعوراً بالذنب لإثمٍ قد ارتكبته وتندم عليه، ولكن ما حدث بعد ذلك كان يثبت خطأ هذا الاعتقاد.

في أحد الأيام تركت لي رسالة تفيد برغبتها في الانتحار، ولم آخذ هذا التهديد على محمل عبثي، فأنا أعلم أنه غالباً مَن يذكر تلك المسألة هو يعني ما يقول، بل وتراوده الفكرة.

اتصلتُ بها، لأقنعها بضرورة مقابلتها في عيادتي لكي نتحدث عما يتعبها حتى أساعدها في تجاوز الأمر، ولكنها رفضت، وسدت في وجهي كافة الطرق.

أرسلتُ لها أكثر من رسالة أذكّرُها فيها بابنتها التي مازالت طفلة وفي حاجة إليها، فكانت تبكي ولا تجيب.

تساءلتُ بيني وبين نفسي:

_ أي معاملة تلك التي عاملها بها زوجها، وجعلتها تصل إلى هذه الحالة من الاكتئاب الحاد، بل وفكرت في مقابلة زوجها. ولكنني لم أكن أعلم اسمه ولا عنوانه.

بدأتُ أعقد معها اتفاقاً أن تحكي لي كل ما يتعبها، وأنا كفيل بأن أزيل من نفسها كل المرارة التي تعاني منها على حد وصفها، وإن لم أفلح فلن أطلب منها أن تتمسك بالأمل مرة أخرى، وذكرتُها كثيراً بلحظات الأمومة التي ربما كانت هي كل ما تبقى لها في هذا العالم من روابط.

كانت بالنسبة لي تحدياً عظيماً، فإنقاذ حياة إنسان فعلاً تستحق كل المحاولات.

شيئاً فشيئاً بدأت تتحدث عن الطريقة التي تزوجت بها، وأن والدها هو من اختار لها زوجها ولم يترك لها حرية الرفض، وكأنها ليست إنسانة من حقها تقرير مصيرها، متناسياً بذلك كل ما فرضه الشرع لها من حقوق. وأنه كان مبتعداً عنها طيلة فترة طفولتها، وظهر أثناء دراستها الجامعة ومعه هذا

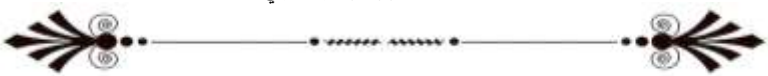

العريس، قالت: إنّ والدها كان متسلطاً ووالدتها كذلك، وكانا منفصلين، فنشأت فاشلة في الاختيار مترددة، هشة، ضعيفة. تبكي في أي موقف، وتشعر بالظلم الذي لازمها طيلة حياتها، ولم يكن زوجها بالرجل الذي يمكن أن يحل محل هذه الأسرة المتسلطة التي تمحو شخصية أبنائها.

بل على العكس كان شخصية اتكالية يريد من يُسيِّر له حياته، وينتظر منها أن تفعل كل شيء نيابة عنه، شخصية لا مبالية بأي أحد حتى زوجته وطفلته، لا يلقي بالاً لمشاعرها مهما فعلت من أعمال، وكانت عليها من الصعوبة بمكان.

هو لا يرى ذلك ولا يفهم أنّها تفعل ما لم تتخيل أن تفعله يوماً، فلا تقدير لها، ولا تشجيع وإنما نقد وبحث عن الأخطاء، وإظهاره لذلك بفداحة، كما يظهر لها دائماً أنها لا ترقى إلى أن تكون زوجة جديرة بأن يحبها أو ينال معها السعادة.

قالت لي ذات مرة:

_كانت كلماته تدمرني، تظهرني بمظهر العجز أمام نفسي، كان يتلذذ بوصفي بالبلهاء التي لا تفقه في الدنيا شيئاً، برغم ذكائي المشهود له من كل من يعرفني.

كم جرحني وتركني أغفو بصحبة دموعي ليالي طويلة، كم تركني أتردد على عيادات الأطباء وحدي، ولم يكلف نفسه حتى بسؤالي عن نتيجة الفحص أو حالتي الصحية.

وكان كل ذلك يؤذيني، بل يذيبني قطرة قطرة، حتى شعُرتُ بأني قد انتهيت، وصدر قرار فنائي.

لا أنكر أنّ كلماتها لمست وتراً حساساً في نفسي فتذكرتُ أبي، ذلك الحاضر الغائب دائماً في حياتنا، المنفصل عن والدتي نفسياً منذ أعوام طويلة.

تأثرتُ بكلماتها، وحاولتُ أن أُدخِل في روعها أنها لا تستمد قيمتها من زوجها، بل إنها يمكنها أن تقوى بدونه، وتمنح نفسها السعادة من داخلها، بأن تضع يدها على مواطن القوة في نفسها، وتتدخل بينها وبين نفسها لتفض الاشتباك الحادث بداخلها ليحدث التصالح مع نفسها، ومن ثمّ مع العالم.

بل ونصحتها بالانفصال عن هذا الرجل الذي يدمرها وجودها معه، ويحملها ما لا تطيق، قالت لي:

إنها تشعر بالخوف من المجتمع ومن أسرتها إن أقدمت على فعل ذلك، وربما ظلمها الجميع بطلبها الانفصال ولن يقتنعوا بمبرراتها.

فقلتُ لها:

لا تهتمي بكلامهم، كوني نفسك افعلي ما تريدين أنتِ لا هم.

كفاهم تدخلاً في حياتك، وحكماً عليكِ. ماذا يريدون؟ هل ينتظرون أن تعودي إليهم جثة هامدة حتى يقتنعوا بأنكِ تعانين؟

لا تعيشي حياة لا تليق بكِ، وتخالف طبيعتك الهادئة، كفاكِ ضغطاً على أعصابك، كل أمراضك الجسدية ستشفى لو ابتعدتِ عما يتعبك نفسياً.

كانت تستمع إليَّ في الجلسات وتصمت وتفكر بعمق.

أظن أنني حولت رأيها عن فكرة الانتحار، فبدأت تفكر كيف تبدأ مع طفلتها من جديد، في جو يخلو من المشاحنات والضغائن، في هدوء وسكينة.

شرع الله الطلاق حين استحالة العشرة، أليس هو الأفضل في مثل هذه الحالات؟

انتهت الجلسات بعد أن أخبرتني بأنها تريد شكري بنفسها لأنني غيرت طريقة تفكيرها، وبأنها أصبحت ولأول مرة في حياتها تملك الأمل في النجاة، وفي حياة جديدة.

أعطيتُها عنوان عيادتي في المعادي، وحددتُ لها موعداً لزيارتي فيها.

وفي الموعد المحدد دخل المساعد إلى غرفة الكشف، وأخبرني بأن امرأة تقول إنّ هناك موعداً سابقاً معك. فقلتُ له: دعها تتفضل بالدخول.

دخلت حجرة الكشف، وأنا أنظر في الملف الخاص بها، وما إن رفعتُ بصري إليها إلا وشعرتُ أنّ الأرض تميدُ بي، أيعقل هذا؟ إنّها هي!

فقلتُ بصوت مختنق:

_سلوان!

_ نعم سلوان، أرأيت مصيري بعينيك، دفعتُ ثمن ظلمي لك.

لم أستطع الرد، كانت كلماتها كالسيف الذي يقطع أوصالي، لا أدري هل أرثي لحالها؟ أم أشعر بأن حقي أخذه لي رجلٌ آخر.

قالت لي والحيرة تبدو على وجهها:

_ ألهذه الدرجة كانت صدمتك؟

أعرفتَ الآن لمَ لمْ أرد من البداية زيارتك، علمتُ أنك طبيب ماهر، وكنتُ في حاجة إلى علاجك، لكن لا تخف أنا شُفيت بفضلك، ولن أفتح صفحة تمزقت منذ زمن بعيد.

_ أنا الآن طبيبكِ المعالج فقط، ومسرور لشفائك.

انصرفت في الحال، وتركتني أفكر في تدابير القدر، وكيف دارت دائرة الأيام فرأيتها بعيني مرة أخرى وكأنّ الأيام لا تمر عليَّ وعليها.

ولكنّها تغيرت صارت أكبر سناً، وتغيرت ملامحها وقصت شعرها، وتركت كل لحظة من لحظات معاناتها بصمة على موضع في وجهها، فلم تعد تلك الفاتنة التي تحرك لها قلبي، وأصبحت أكثر هماً من ذي قبل.

وأنا أعتقد أنني قد شُفيتُ منها الآن أفضل من أي وقت مضى.

حادث ومأساة

"ليست الوجهة هي المكان الذي تنتهي فيه، ولكن المصائب والذكريات التي تخلقها على طول الطريق."

بينيلوب رايلي

"المغامرة تستحق الجهد."

أرسطو

ومرت الأيام، وأنا لا أفكر في الزواج مطلقاً، كنتُ أهاب الفكرة، وقررتُ ألا أتزوج إلا بمن سيحبها قلبي ولو بعد مرور أعوام.

وفي أحد أيام شهر يناير بعد مرور سنة تقريباً، أثناء عودتي من عيادتي في التاسعة مساءً، كانت الأمطار بدأت في الهطول بينما مسَّاحات السيارة معطلة، فاختلطت عليَّ الرؤية، وفوجئتُ بارتطامٍ شديدٍ يحدث في مقدمة سيارتي، ففزِعتُ وأوقفتها سريعاً، ونزلتُ لأرى ما الأمر، فإذا بها طفلة في حوالي السابعة من عمرها كانت تعبر الطريق، سقطت أما سيارتي، مضرجة في دمائها بسببي.

ارتبكتُ، وشعرتُ برهبة الموقف، ومن ثَمّ حملتُها إلى داخل السيارة وانطلقتُ بها مسرعاً حتى وصلتُ إلى أقرب مستشفى، أدخلتها الطوارئ، وجلستُ أرتعش وأتنفس بصعوبة وأبكي كما لم أفعل من قبل.

بدأت تساؤلات مَنْ بالمستشفى عن هويتي وهوية البنت، وأنا حائر لا أدري بما أجيب.

بعد أن علموا بأنني طبيب، بدأت حدة نبرتهم تخف، واستضافني مدير المستشفى في مكتبه وهدأ من روعي، ثم بدأ بسؤالي عما حدث لإبلاغ الشرطة، فأخبرته بأنني كنتُ أقود السيارة أثناء هطول الأمطار، ولم أرَ البنت مطلقاً، وعلى استعداد لأي استجواب من الشرطة.

طرقت إحدى الممرضات الباب، فأذن لها المدير بالدخول، فقالت:

_ لقد عثرنا في جيب بنطال البنت على ورقة مسجل بها رقم هاتف.

_ ماذا تنتظروا اتصلوا بالرقم سريعاً ربما وصلنا إلى أسرتها.

_ حالاً.

قلتُ للمدير:

_ حسناً.. سنصل إلى أسرتها، ولكن أريد معرفة حالة البنت الصحية أرجوك.

_ هيا معي لنراها الآن ونعرف.

خرجنا من حجرة مكتبه، واتجهنا إلى غرفة البنت، وبسؤالنا الطبيب الذي يفحصها ويدعى أحمد قال لنا:

_ كسر في رجلها اليمنى، وبعض الجروح والسحجات، الحمد لله حالتها ليست خطيرة، هي فقط ارتعدت من الخوف، لذلك قمنا بإعطائها مخدراً، وقمنا بتجبيس رجلها، ومازالت تحت تأثيره.

قلتُ: الحمد لله. وتمنيتُ لو حضرت أسرتها سريعاً لكي أعتذر، وأقدم أسفي وأحاول تسوية الأمر دون أن يلجؤوا إلى الشرطة، والحجز وخلافه.

وبعد ساعة حضر والد البنت، وكان خائفاً عليها جداً، وأبلغ الشرطة سريعاً، ثمّ جرى كل شيء بروتينية شديدة، دون إرادة مني وفي خلال ساعة كنتُ محجزواً في قسم شرطة المعادي الذي تتبعه المستشفى، ولم أستطع حتى إبلاغ أسرتي بما جرى لي، ولكني اتصلت بأحد أصدقائي يعمل بالمحاماة ليحضر معي التحقيق فور ترحيلي إلى النيابة باكراً.

كانت ليلة طويلة عليَّ، تعادل ما يقارب العام. قضيتها وأنا مؤرق، أحاول أن أعثر على عذر لنفسي فيما فعلتُ بهذه الطفلة المسكينة، ولا أجد، فأنا مهمل ولم أفكر في عاقبة عدم إصلاح مسَّاحات الزجاج الأمامي لسيارتي قبل الشتاء.

وفي الصباح تم اصطحابي إلى النيابة ورافقني المحامي الذي بدأتُ أقصّ عليه كل ما جرى، فأخبرني بألا أحكي القصة أمام وكيل النيابة بصفتي أنني المسؤول عما حدث، وأكتفي بذكر أنّ الأمطار قد أعاقت الرؤيا، وأنّ البنت لم تنتبه لآلات التنبيه.

فعلتُ ما أشار عليَّ به، ولكن برغم ذلك وكيل النيابة أمر بحبسي أربعة أيام على ذمة التحقيق.

قال لي المحامي:

_ لا تخف. سأقابل والد البنت في المستشفى وأعرض عليه مبلغاً من المال مقابل التنازل عن المحضر.

في اليوم التالي، أخبروني أن لي زيارة، وكانت الزيارة للمحامي الذي قابلني بوجه بشوش وأخبرني إنه التقى بوالد البنت، ويدعى ماهر وكان مصمماً على عدم التنازل عن القضية، ولكن والدتها كانت بالمستشفى أيضاً، ووافقت على التنازل، بل وأقنعت والد البنت وهو طليقها بأن يتنازل، طالما أن البنت حالتها تحسنت، وأنه ربما نجاه الله من موقف مشابه مستقبلاً، إذا تنازل عن القضية الآن، كما رفضا الحصول على قرش واحد كتعويض، وأخبره والد البنت أنه سيأتي للنيابة اليوم، للتنازل عن القضية والتصالح، فور انتهاء إجراءات خروج البنت من المستشفى.

حمدتُ الله على ذلك حمداً كثيراً، وطلبتُ من المحامي إنهاء الإجراءات بأسرع ما يمكن لكي أتمكن من الخروج، والعودة إلى أسرتي التي لم تعلم شيئاً عما حدث حتى الآن.

أوفى والد البنت بوعده، وتنازل عن القضية، وخرجتُ أنا بعد عناء من بقائي بدون نوم أو طعام لمدة يومين.

فور عودتي إلى المنزل، كانت والدتي قلقة عليّ جدّاً، وأبي أيضاً، فلم أشأ أن أخبرهما بما حدث لي، وقلتُ لهما: إنّني اضطررت إلى السفر لزيارة أحد أصدقائي في الإسكندرية حيث أُجريت له عملية جراحية.

دخلتُ حجرتي وأنا أشعر أنني في كابوسٍ رهيبٍ نجوتُ منه بأعجوبة، وتخيلتُ ماذا كان سيحدث لي لو لم يتنازل الرجل عن القضية، ولم أكن لألومه حينها، فأنا المخطئ وأعترف لنفسي بذلك.

أخذتُ حماماً دافئاً، وتناولتُ طعامي، ثمّ نمتُ لأكثر من اثني عشر ساعة.

في الصباح أول ما خطر ببالي أن أذهب إلى الميكانيكي لتغيير ماسحات زجاج سيارتي، ثمّ اتجهتُ إلى المغسلة لتنظيف السيارة من آثار دماء الطفلة.

اتجهتُ إلى المستشفى للسؤال عن عنوان منزل البنت التي صدمتُها بالسيارة بالأمس، واتجهت إلى منزلها لكي أطمئن على حالتها وأشكر والديها.

وفور أن دق جرس الباب فتحت لي والدتها، وكانت المفاجأة للمرة الثانية أشعر بأنّ قلبي يكاد أن ينخلع من صدري، فقد كانت سلوان هي والدة البنت، لم أكن مستوعباً للموقف عندما رأيتُها، وكان الحزن بادياً على وجهها، فقالت لي:

_ تفضل يا دكتور وحيد.

دلفتُ إلى الشقة، وأنا محرج وأشعر بالخجل، وقد جفّ حلقي، فقالت لي:

_ ماذا تشرب؟

_ لا شيء.. كوب ماء من فضلك.

_تفضل بالداخل. علمتُ من المحامي أنك من صدم ابنتي بالسيارة.

أدخلتني حجرة ابنتها التي كانت على فراشها، والجبس يكسو رجلها بالكامل.

كنتُ متأثراً جدّاً بحالة البنت، خاصة عندما سمعتها تتألم وتبكي.

فقلتُ لها:

ستكونين بخير يا حبيبتي، ستصيرين أفضل من السابق، تحملي واصبري، لن نتركك.

فقالت البنت بدهشة بادية على قسماتها بعد أن توقفت عن البكاء:

_ من أنت يا عمو؟ أنا لم أرك من قبل.

_ أنا طبيب والدتك، وجئتُ لأطمئن عليكِ، كما يمكنني أن أكتب لكِ مسكناً جيداً حتى لا تشعري بالألم نهائياً.

دخلت والدتُها تحمل الماء في يدها، ثم قالت:

_ لا داعي، فقد أعطيتها المسكن منذ دقائق، ولم يظهر مفعوله بعد.

قلتُ لها وأنا أتصبب عرقاً:

_ أنا الآن مدينٌ لكِ يا سلوان، فقد أخبرني المحامي بأنكِ السبب في تنازل والد هند عن القضية.

_ لم أفعل شيئاً سوى ما أملاه عليَّ ضميري، صدقني لك الفضل في شفائي وتجاوزي لسنوات قضيتها في المعاناة، كما أنّني لم أكن أعلم اسم مَن قام بالحادث حين قررتُ التنازل عن القضية وأقنعت ماهر بذلك.

فلو كان غيرك من فعل ذلك كنتُ تنازلتُ عن القضية أيضاً، فلا تظن أنني أرد لك مساعدتك لي.

_ لا سمح الله. أنا لم أفعل سوى واجبي، وأراكِ قد تحسنتِ الآن واستعدتِ توازنك النفسي، فحمداً لله على سلامتك، وسلامة ابنتك.

ومنذ الآن أتمنى لو أصبحنا أصدقاء، واسمحي لي بالاطمئنان على هند في الهاتف من وقت إلى آخر.

_ شرفٌ لي طبعاً، فأنت طبيب ممتاز ولا يسعني سوى الترحيب بهذه الصداقة.

خرجتُ من عندها، وأنا مندهشٌ متعجبٌ من المصادفة الغريبة، والحرج الذي أصابني، ولكني أشعر بالرضا عن نفسي لأني اكتسبت صداقة هذه المرأة التي لم أكن أصدق أنّها سوف تظهر في حياتي مرة أخرى.

عند دخولي منزلي استقبلتني والدتي بابتسامتها الحانية، وسألتني:

_ ماذا بكَ يا وحيد؟

_ حدثت أحداث كثيرة يا أمي في الأيام الأخيرة، وسأقص عليكِ كل شيء بالتفصل فوراً.

جلستُ مع أمي في حجرة المعيشة على كرسي الفوتيه الوثير، وقصصتُ عليها كل ما كان بالتفصيل حتى عودتي اليوم.

فتعجبت جداً، وسألتني لماذا أخفيتُ عليها أمر الحادث بالأمس، وما الذي دعاني إلى الكذب؟ فقلتُ له مبتسماً:

_ لأني خشيتُ من رد فعلك على ما حدث أو لومي أو الخوف عليّ، بينما كنتُ عائداً متعباً جدّاً وعلى قدرٍ عالٍ من الإجهاد، كما أنني لم أحب كلمات التأنيب التي سأسمعها من أبي إن هو علم بأمر الحادث.

_ فاشتريتَ رأسك، وقررت الكذب، هكذا ستفقدني ثقتي فيك التي لم تختل يوماً.

_ لا يا أمي إلا هذه، سأحاول أن أثبت لكِ أنّ ثقتك كانت في محلها، فهذا موقف طارئ ومن الصعب التعرض له ثانيةً.

_ وما حكاية سلوان؟ هل كانت تعلم أنك من صدم ابنتها لذلك تنازلت عن القضية؟

_ هي تؤكد أنها لم تكن تعلم بذلك، وأنها تنازلت لأنّ ابنتها بخير وقد نجاها الله، وتتمنى لو ينجيها الله هي الأخرى بسبب عفوها عمن قام بالحادث بدون قصد.

_ لو الموضوع هكذا، فهي إذا امرأة عاقلة جدّاً، وشخصية جديرة بالاحترام، شوَّقني كلامك لرؤيتها وشكرها بنفسي على صنيعها.

سأتصل بها غداً لأطمئن على البنت وأسألها إن كانت تسمح لكِ بزيارتها لشكرها.

_ خيراً ستفعل.

تناولنا الطعام، ثمّ ذهبتُ إلى عيادتي كالعادة، وبعد انتهاء عملي عدتُ إلى المنزل، وبداخلي طاقة غريبة تلازمني طوال اليوم، لا أدري مصدرها، وأنا أتطلع إلى الغد لأحادث سلوان وأطمئن على ابنتها.

عند خلودي إلى النوم وجدتُني أُسائل نفسي: ما بكَ؟ هل ستتخذ الطفلة ذريعة لكي تصل من انقطع منذ سنوات؟

هل تحِن لمن كسرت قلبك بالأمس البعيد، أم أنّك اشتقتَ لجرح جديد؟

حذارِ من التعلُق بها مرةً أخرى، فلا حالتك النفسية ولا صحتك ستتحمل صدمة جديدة.

ولكنّ صوتاً آخر بداخلي كان يقول:

ولكنّ الله وضعها في طريقي مرتين! أليس لهذا معنى؟ كأنّ القدر يخبرني بأنّها قدري ومصيري المحتوم، ويأبى عليّ الابتعاد عنها، ثمّ إنّني عالجتها بنفسي، وأعلم ما تعرضت له من ظروف في الماضي، فشكّل عقدة عدم ثقة وخللاً نفسياً عانت منه حين ابتعدت عني سابقاً، أي أنه كان رغماً عنها.

استيقظت في الصباح الباكر بنشاط، وتناولتُ فطوري، ثمّ اتصلتُ بسلوان، وبعد التحية واطمئناني على ابنتها، فى النهاية استأذنتها أن تزورها والدتي للاطمئنان على البنت ولكي تقوم بشُكرها على تنازلها هي وزوجها عن القضية.

فرحبت سلوان وقالت: مرحباً بها في أي وقت.

في المساء اصطحبتُ والدتي إلى منزل سلوان، بينما بقيتُ أنا في السيارة حتى انتهاء الزيارة، صعدت والدتي بمفردها إلى شقتها.

حين فتحت سلوان الباب بابتسامة صافية قالت: أهلاً وسهلاً يا ماما تفضلي أنرتِ المنزل.

فردت والدتي بوجهٍ بشوش أهلاً يا حبيبتي، تفضلي، وناولتها الورد الذي كانت تحمله، ثم دخلت إلى الشقة، ووجهتها سلوان نحو حجرة ابنتها، فقالت:

_ابنتنا الجميلة هند ما أخبارها اليوم وكيف حالها؟

_ الحمد لله هي تتحسن، وبدأت تعتاد على الجبس وتتحرك به فتسيرعلى قدم واحدة وتستند على أمها.

_ ما شاء الله، كتب لكِ الله السلامة يابْنتي، وحفظكِ الله، معروفكِ يا سلوان مع ابني لن أنساهُ أبداً. أين والدها لكي أشكره على صنيعه؟

ابتسمت سلوان بحرج وقالت:

_ في منزله، نحن لم نفعل شيئاً، وهذا من بعض معروف دكتور وحيد. تفضلي العصير.

_أشكركِ يابْنتي، لمَ أتعبتِ نفسك؟ أبلغيه شكرنا، ونحن معكِ يابْنتي أنتِ وابنتك، لو احتجتِ لي أنا لن أقصر معكِ، وستجدينني لكِ خير الأم، فأنتِ بمثابة ابنتي مثل كريمة ورضوى أختيّ وحيد.

_ نعم يا ماما أشعر أنكِ مثل والدتي رحمها الله تماماً، أدام الله المعروف بيننا.

استأذنت والدتي وانصرفت، هذا ما قصته عليّ والدتي فيما بعد.

وعند نزولها إلى السيارة سألتها بلهفة:

_كيف حال سلوان اليوم؟

_ سلوان أم هند؟

_ أقصد هند يا أمي، تفهميني دائماً دون أن أتكلم.

_ نعم يا بني، الحمد لله هي اليوم أفضل من ذي قبل.

ولكن لمَ لم تخبرني أنها منفصلة عن زوجها، فقد وقعتُ في الحرج حين طلبتُ منها أن أشكر زوجها بنفسي.

_ لابد أن سلوان شعرت بالحرج كذلك، وتعجبَت من سؤالك. ولكني نسيتُ تماماً أمر زوجها هذا.

ذكرياتي

قال أحد الحكماء: (الذكريات التي لا تموت تُميت)

كل ما أتذكره في ذلك اليوم أنني فكرتُ طويلاً، ثمّ تراجعتُ، ثم نفذتُ قراري الذي يخالف ما أحبّ، فأنهيت كل شيء في لحظات، وجلستُ وحيدة أبكي ذكريات دمرتُها بيدي، سمعت كلمات أغنية لفيروز وكأنها أشعلت فتيل الحرب بين عقلي وقلبي، وشعرت بانكسار روحي لأول مرة، كانت الدنيا مظلمة من حولي ودموعي تنساب على وجنتيَّ بلا توقف، أتذكر كلمات دافئة طاب فيها قلبي وثملت بها روحي، قيدٌ من نار ألقاه عقلي على قلبي بلا رحمة، كتمتُ بكائي بالوسادة، جافاني النوم ومنذ ذلك الحين وأنا لستُ أنا.

لم يكن يبدو أنّ الجرح بهذا العمق حينها، كانت الكلمات أقل عمقاً من أن تعبر عما يعتمل في صدري، ذهاب الماضي حاملاً معه آلاف الكلمات والدموع والآهات، حاملاً معه روح لم تزل على قيد الحياة، على قيد اليأس، ولكن القلب يمرض ويعترض، ثمّ ينتحر ويترك العالم، فيصير ما تبقى لا يعدو خيالاً بلا معنى ولا حياة، بلا وطن حقيقي.

الأيام لا تمر بي بل تسحقني، وتبقى على جبيني مثل شامة أو ندبة كبيرة تذكرني بكل ما مضى، وكل ما فعلتُ، فرطتُ في حب وحيد الصادق من أجل أوهام.

وأنا الآن بين شقي الرحى، بعد طلاقي، أو إطلاق صراحي، أشعر بالوحدة، وبحاجتي إلى تلك اليد التي تربت على كتفي، وتصطحبني إلى عالم جديد أشعر فيه بنفسي التي ضاعت مني.

نادتني هند بصوت مرتفع فأفقتُ من شرودي، ومن الخواطر المبعثرة التي لاحقتني، منذ ظهر وحيد في حياتي مرة أخرى.

أسرعتُ إليها، فأخبرتني برغبتها في رؤية والدها، وكنتُ لا أمنعها عنه في صحتها، فكيف أمنعها عنه في مرضها، حدثتهُ في الهاتف، وطلبتُ منه الحضور ليرى ابنته التي تسأل عنه ليل نهار.

أعطاني ميعاداً بالحضور في الخامسة مساءً، فطمأنتها بحضوره، فنظرت إليّ بانكسار وقالت:

_ أتمنى لو يبقى معنا إلى الأبد، فأنا أشعر بالضعف في غيابه.

_ انتهينا من هذا الكلام يا بنيتي، هو ليس بعيداً عنا، وسيأتي لزيارتك كلما أردتِ ذلك.

_ ولماذا لا يعيش معنا للأبد يا أمي؟

_ مازلتِ صغيرة وتغيب عنكِ أمور كثيرة، وأمورغيرها لن تستطيعي فهمها أو تقديرها.

_ ولكني أحبه يا أمي فهو أبي، وأحسد زميلاتي ممن يُقِمن مع والدهن.

_ سيأتي يوم، وتتأكدين أنني اخترتُ لكِ الأصلح، وأنا في مثل سنك كنت أردد نفس هذه الكلمات، والآن بعد أن كبرت وصرتُ أماً، فهمتُ لمَ حدث

الانفصال بين أبي وأمي، وعلمتُ أن هذا الوضع كان هو الأنسب لنا جميعاً، ولكن نظري القاصر لم يستطع رؤية ذلك سابقاً.

_ أريد أن أنام الآن، أطفئي المصباح يا أمي، وأيقظيني حين قدوم أبي.

خرجتُ من حجرة ابنتي والأفكار تنازعني، هل يا ترى تكون هي ضحية سوء اختياراتي، وتهاوني في حق نفسي باختيار هذا الأب لها؟

اتصلتُ بخالتي سعاد وهي أنيسة وحدتي وأليفة قلبي، طلبت منها أن تزورني لأحادثها في أمر ما، فلم تمانع، ووعدتني بالزيارة في اليوم التالي.

في الخامسة مساءً حضر ماهر، وأحضر معه قالب الحلوى الذي تحبه هند.

وتحدث معها برفق وتأثُر، وكان يبدو أنه منشغلٌ عليها جداً.

رجوته أن يحضر للسؤال عنها يومياً حتى تشفى، فهذا سيشكل فرقاً في استجابتها للعلاج، فوعدني أنّه سيفعل.

ثم انفرد بي بعد أن خرج من حجرة ابنته، وقال لي بجدية:

_ ألن تعودي إلى صوابكِ، ونتزوج من أجل ابنتنا؟

_ هذا الموضوع قد أغلِق تماماً، وأرجو أن تصرف نظرك عنه.

_ ولكني لا أستطيع العيش بدونكما، فالمنزل كئيب، وحين عودتي من عملي يومياً أشعر بالوحدة.

_ يمكنك أن تتزوج، ووقتها ستجد من تملأ فراغ حياتك، أما أنا فقد قلبتُ هذه الصفحة من حياتي إلى الأبد، ولن أفكر في العودة.

ولا تجعل ابنتك وسيلة ضغط عليَّ، أو عذراً لكي أقبل ما لا أريد قبوله.
انصرف ماهر محملاً بخيبة الأمل، وأنا أزدادُ تصميماً على الثبات على موقفي، وشراء راحة بالي.
تنفستُ الصعداء، لأنني وضعتُ حداً لمحاولاته، وبحثتُ عن عمل في مجال قريب من دراستي التي لم أكملها في الكلية.
وحين اتصل بي وحيد سألته إن كان يمكنني العمل في التمريض حتى، لكي أشغل وقت فراغي، وأستطيع العيش بمفردي، فوعدني بالبحث عن عمل لي في المستشفى الذي يعمل به صباحاً.
كان صعباً عليَّ جداً تقبل فكرة العمل في التمريض بعد أن أنهيتُ خمسة أعوام في كلية الطب البشري، ولم يكن باقياً لي سوى عام واحد على التخرج.
ولكن تركت الكلية كما أترك كل شيء جميل في حياتي ثم أندم.
فقلتُ لنفسي:
ربما هو قضاء الله، ولابد أن أرضى به.
اتصل بي وحيد بعد يومين، وأخبرني بالعثورعلى وظيفة كما أردتُ، فأخبرته أنني سأحضر غداً في العنوان الذي وصفه لي لاستلام العمل، ولم أنسَ شكره على معروفه.
ولكنني بتُ مؤرقة الجفن، وأشعر في داخلي بعدم الرضا عن هذا العمل، وبالفعل لم أفعل ما يوجع قلبي، فلم أحضر لاستلام العمل.

اتصل بي وحيد، واستفسر عن سبب عدم استلامي للعمل، فأخبرتُه بالحقيقة، وبأنه صعبٌ على نفسي العمل ممرضة بعد أن كنتُ سأصبح طبيبة.

فقال لي:

_ لمَ لا تذهبي إلى الكلية وتسألي عن إمكانية إكمال دراستك خاصة وأنه عام واحد ومن السهل أن تذاكري المواد الدراسية، وتتحملي وتصبري حتى انتهائه.

_ سأفكر في الأمر وأتدبر ظروفي.

_ لا تفكري صدقيني ستشعرين بالراحة ويزول من نفسك الامتعاض الذي سببته لكِ فكرة العمل في وظيفة أخرى غير التي تريدينها.

سأذهب غداً إلى الكلية، وأسأل وربما كانت فكرة صائبة.

دق جرس الباب، ها قد أتت خالتي سعاد كما وعدتني. أهلاً خالتي وحبيبتي، ألا تأتين إلا عندما أطلب منكِ ذلك؟

_ من منا تزور الأخرى يا بنت؟

_ والله يا خالتي ابنتي مازالت تلازم الفراش بعد الحادث وصعب عليّ أن أتركها.

_ يا إلهي ماذا حدث؟ لمَ لم يخبرني أحد منكم؟ أنسيتموني؟

_ أبداً والله لا نستطع نسيانك، ولكنها الصدمة التي فاجأتنا، جعلتنا لا نشعر برؤوسنا.

_ احكي لي كل ما حدث بالتفصيل.

_ سأفعل. ولكن سأعد القهوة أولاً، لنستطيع الكلام بهدوء.

نهضتُ من موضعي ودخلتُ المطبخ، وتبعتني خالتي إليه.

وقالت: لا أطيق صبراً، أخبريني كيف حدثت الحادثة، وكيف حال هند الآن؟

_ الحمد لله، هند بخير، تم تجبيس رجلها، وبعض الخدوش في ذراعيها أوشكت على الشفاء.

كانت هند في طريقها لشراء الحلوى من أحد المحال التي تواجه مسكننا، وبالمصادفة هطلت الأمطار، وكانت سيارة تعبر الطريق، لم يرَ سائقها البنت بسبب الأمطار فصدمها، ومن لُطف الله أن اقتصر الأمر على كسر في ساقها.

_وماذا فعل السائق؟ طبعاً فرّ هارباً وتركها ملقاة بالشارع.

_ أبداً.. كان إنساناً، فحملها بسيارته ونقلها إلى المشفى، برغم علمه بأن ذلك سيؤدي إلى سجنه، وكان قلقاً عليها أيّما قلق.

_ وكيف عرفتِ ذلك؟

_ تكشفت الأحداث شيئاً فشيئاً، وعندما اتجه ماهر إلى المشفى علم التفاصيل من إدارتها، وكل من بها أشاد بما فعله ذلك الرجل الذي لم يتهرب من مسؤوليته.

_ أما زال بالحبس؟

_ لا.. فقد تنازلنا عن المحضر فور علمنا بعدم خطورة حالة هند.

_ خيراً فعلتما، بالتأكيد كان الحادث رغماً عنه، وكلنا نقود سياراتنا، ومعرضون للوقوع في هذا الخطأ. عفا الله عما سلف. حملنا معاً قدحيّ القهوة، ودلفنا إلى حجرة المعيشة، لنجلس سوياً ونكمل حديثنا.

أتعرفين يا خالتي، المصادفة لعبت دوراً في حياتي عظيماً.

_ كيف ذلك؟

_ من صدم هند هو نفسه الطبيب النفسي الذي كان يعالجني منذ فترة بعد أن أوشكتُ على الانهيار.

_ معقول كيف ذلك؟ هي حقاً مصادفة عجيبة.

ولكنك أخبرتني حينها أن العلاج تم عبر شبكة الانترنت؟

_ نعم، ولكني زرته في العيادة بعد تمام الشفاء وشكرته.

وقد زارني هنا ليطمئن على هند، ولم يكن يعلم أنني مريضته التي عالجها منذ فترة.

_ وماذا في ذلك؟

_ لم أخبركِ بأهم نقطة في المصادفة لتكتمل الصورة.

_ أخبريني يا سلوان هيا شوقتِني لبقية القصة.

_ وحيد.

_ ماذا؟

_ وحيد.. زميلي في الجامعة، أتذكرين قصته؟

فغرت خالتي فاها ووضعت يدها عليه لتكتم صيحة المفاجأة، ثمّ قالت:

_ ماذا؟ أهو نفس الفتى الذي حملتِ ذنبه في عنقك كل هذه الأعوام؟

فظهرت الدموع في عينيّ وأجبتها:

_ نعم هو. للأسف هو وكنتُ أتمنى ألا أقابله باقي عمري ولكنّها المصافة.

_ لا ترددي كلمة المصادفة، أنت تعرفينني لا أؤمن بالمصادفات، قولي إنها إرادة الله وقد جمعكما معاً بعد طول انتظار.

تنهدتُ بعمق، وأخبرتها أنني أوافق على هذا الرأي.

هو تخطيط الله ولا نعلم بعد ما تخبئه لنا الأيام.

مكثتْ عندي خالتي ليلتين ساعدتني فيهما كثيراً في رعاية هند، وكانت هند مسرورة بوجودها جداً، وتمنينا ألا تتركنا أبداً، ولكنّها غادرتنا وتركتني وحيدة كالعادة.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى الكلية، وسألتُ عن كيفية إكمال دراستي، فوجدتُ أنّ هناك فرصة لذلك، ولكن عليّ تقديم طلب بذلك، والانتظام في المواد العملية بالذات.

فرحتُ جداً، ولكن بقيت مشكلة واحدة وهي هل سأستطيع الحضور والمذاكرة مع رعايتي لابنتي بعد فك الحبس وانتظامها هي الأخرى في مدرستها؟

فقررتُ التحمل، والمثابرة لأصل إلى ما أريده.

اتفقت مع خالتي سعاد على ترك ابنتي عندها في بيتها كلما احتجت إلى ذلك، فرحبت بشدة، كما سعدت هند أيضاً لحبها الشديد لها.

جلستُ مع ابنتي وأفهمتها ما نويتُ عليه، ففرحت وشجعتني، وقالت لي إنها ستساعدني حتى أصل إلى ما أصبو إليه.

بدأتُ الدراسة بحماسة وجدية، ووجدت اسجابتي للدراسة عالية على خلاف ما كنتُ أتوقع، فلم يؤثر سني في درجة استيعابي، ولا سيما أنني علمتُ الآن أهمية الدراسة ومدى حاجتي إليها.

كنتُ أذاكر لنفسي ولابنتي، ولم أقصر معها البتة، وشعرتُ بالفخر والاعتزاز بنفسي حين أنهيت أنا وهند عامنا الدراسي بنجاح، وأخيراً أصبحتُ طبيبة.

مرت فترة الامتياز عليَّ بكثير من الاهتمام، والمثابرة، وحرصتُ على تعلُم كل ما أستطيع تعلمه، وكان ما يشغل بالي وقتها هو ما سأتخصص فيه، وقد رأيتُ من الحالات المرضية ما يهون على كل ألم، فقد علمتُ حقاً أنه يوجد بالعالم من هم يتألمون أكثر مني، وتعرضوا لما هو أسوأ مما تعرضتُ إليه في حياتي من متاعب، بل واستهنتُ بكل معاناتي أمام ما رأيت من معاناة غيري.

تعلمتُ الصبر، والتمسك بالأمل الذي يكاد يكون هو سر مواصلة الحياة والتمسك بها.

اجتزت هذه الفترة بنجاح والحمد لله، شعوري بالنجاح هوَّن عليّ كل صعب.

مر العام وانتهت فترة الامتياز وبدأت أنتظر التكليف، وفي أي مستشفى سوف يتم توزيعي، كنتُ أدعو الله ليل نهار أن يكون تكليفي في القاهرة حتى أستطع أن أواجه مسؤولياتي تجاه ابنتي وتجاه عملي، وحتى لا أضطر إلى نقل حياتي بالكامل إلى مدينة أخرى، وهو ما أخشاه ولا أقدر عليه.

تم تكليفي بالعمل في أحد مستشفيات محافظة الجيزة، فحمدت الله أنني لن أنتقل من الحيَّ الذي أعيش فيه، ولكنّني أستيقظ مبكراً لأذهب إلى عملي وأصطحب ابنتي في طريقي إلى مدرستها، ثمّ أعود للرجوع معها بعد نهاية اليوم الدراسي، وكنتُ دائماً أقول في نفسي أين أبوها من هذا الشقاء الذي ألاقيه!

ولكن عزائي الوحيد أنه تركها معي، ولم يحاول النزاع معي على حضانتها.

بعد عامين من طلاقنا تزوج ماهر من إحدى زميلاته في العمل، وأصبح لا يسأل عن هند سوى في المناسبات، وحمدتُ الله أنه نسي فكرة رجوعنا، وقد انطوت صفحته معي إلى الأبد.

وما عادت هند تنظر إليَّ على أنني مخطئة، وقد حرمتها من وجود والدها في حياتها فبمرور الوقت، وتقدمها في العمر بدأت تعي ما حولها.

بدأتُ في إجراءات الدراسات العليا، وتخصصتُ في مجال طب الأطفال، وكان يستهويني جداً، وأحببتُ فكرة تخفيف الألم عن الأطفال الصغار، ورفع المعاناة عنهم، كنتُ أعامل الأطفال المرضى في المستشفى بكل شفقة ومودة وحب، وكان الأطفال جميعهم يحبونني.

سلوان

أجمل وأروع هندسة في العالم أن تبني جسراً من الأمل على نهر من اليأس.

(حكمة)

شعرتُ بالرضا والراحة الشديدين حين علمتُ أن سلوان أكملت دراستها، وتخرجت وصارت طبيبة كما كانت تتمنى.

ليس لرغبتي في أن تجد وظيفة لائقة بها فقط، ولكن أيضاً لعلمي أن نجاحها سيساعد على استقرار حالتها النفسية، والتخلص من القلق على مستقبلها ومستقبل ابنتها.

كنتُ في أعماقي أتمنى لو استطعتُ مفاتحتها في أمر الزواج منها. فقد شغلت بالي الفكرة رغماً عني منذ أن علمتُ بطلاقها. وتمنيتُ لو جاءت المناسبة التي أراها فيها، ولكن لم يسعفني الحظ، ولم أرَها ولو مصادفةً لأكثر من عام.

فاتحتني أمي في أمر الزواج مرة أخرى وهي ترتجي أن ترى أبنائي قبل نهاية عمرها كما تقول دائماً، وكنتُ أتهرب منها، حتى جاء يوم وخاطبتني بإلحاح في الأمر، بل واقترحت عليّ أن أتقدم لسلوان إن كانت لدي الرغبة في ذلك وألا أتردد.

جلستُ معها في غرفة المعيشة لمدة ساعتين، وهي تحاول معرفة سبب رفضي للزواج، ولا أعرف كيف أقنعها أن الأوان لم يحن بعد.

واليوم وأنا منشغل بإعداد بحث عن ظاهرة الاكتئاب في سن المراهقة من أجل مؤتمر طبي سيتم انعقاده في جينيف، كنتُ في مكتبة الجامعة مُنكباً على القراءة في مجموعة من الكتب أمامي، وأدون بعض ملاحظاتي في نوتة صغيرة معي.

شممت عطراً هادئاً تحرك له قلبي وزادت نبضات قلبي بسرعة، حتى خلتها تضاعفت، فرفعتُ نظري من على صفحة الكتاب لأرى أجمل ابتسامة على وجهها، نعم إنها سلوان وهذا عطرها المميز الذي يذكرني بما أشعر به من اضطراب في وجودها.

سلوان نظرت إليّ من تحت نظارتها، فألقيتُ عليها التحية، ولم يكن من المناسب تبادل الكلام داخل المكتبة، فانتظرتُ بفارغ الصبر حتى انتهيت من تدوين ملاحظاتي من الكتب ثم هممتُ بالانصراف، وأشرتُ إليها، فنهضت وأنهت ما كانت تفعله، ثم التقينا بالخارج.

عرضتُ عليها أن أوصلها إلى منزلها، لنتبادل خلال الطريق الحديث، وأعرف أخبارها. فاعتذرت بخجل وقالت إنها ستمر على ابنتها في المدرسة لتعود معها إلى المنزل. فقلتُ لها ما المانع أن اصطحبك إليها، ثم أوصلكما إلى البيت معاً.

فقبلت في النهاية، وفي الطريق علمتُ بتخصصها الجديد، وطلبتُ منها معاودة الاتصال لو احتاجت لأي مساعدة في الدراسة، وأنني أتمنى تكرار اللقاء.

قصصتُ على والدتي لقائي بسلوان فتهلل وجهها وقالت:

_ حمداً لله يا بني هذه بشرى خير، كنا نتحدث عنها بالأمس.

_ نعم يا أمي، وهو ما حيرني كثيراً. هي تدابير القدر!

_ ألم أُخبركَ بِنيَّتي؟ أتمناها لك زوجة يا بُني أشعر بطيبتها وبأنك تميل إليها.

تلعثمتُ بشدة وكأنّ أمي شقت عن صدري ورأت ما بقلبي، ثم قلتُ لها:

_ ولكني أخشى أن ترفضني، فتنقطع علاقتي بها، ولا يصح بعدها أن نتكلم كأصدقاء حتى.

_ هذا ما تخشاه! اترك تلك المهمة عليَّ. أنا سأزورها وأجس النبض دون أن أصرح برغبتك في التقدم إليها.

احمر وجهي وقلتُ لها:

أخبريها أنني لا أعلم بزيارتكِ لها، حتى لا تنقطع صلتنا لو رفضت.

_ ألهذه الدرجة تحبها؟

انصرفتُ من أمامها، وقد شعرتُ بأنني عدتُ غراً يافعاً، ينتظر أهم قرارات حياته، على أحر من الجمر.

يا لهذه النفس البشرية، من كان يراني حين افترقنا لأول مرة، ما كان يظن أنني يمكنني حتى النظر مجرد النظر إليها مرة أخرى، لكن يبدو أن قدرنا واحد.

حادث أليم

الأم هي القلعة التي يلجأ إليها الأبناء في الأوقات الصعبة، وهي الوجه الذي يتجه إليهم عندما يحتاجون إلى الحنان والدعم.

كارل جونغ

أعدت والدتي نفسها للزيارة، وفور أن فرغت من ارتداء ملابسها، كنتُ قد أخرجت السيارة من المرآب، ثم فتحتُ لها الباب فدلفت، إليها بينما بدأتُ أنا أقود في طريقي إلى سلوان، وفي خلال خمس دقائق وأنا أبتسم وأنظر إلى ناحية والدتي فوجئتُ بشاحنة ضخمة تقطع طريقاً جانبياً وترتطم بسيارتي بعنف، وبعدها فقدتُ الوعي، كل ما أتذكر هو آخر كلمة قالتها أمي: ((انتبه يا وحيد انتبه))

أفقت داخل مستشفى الأمل التخصصي على وجه الطبيب وممرضتين كانتا بالغرفة والجميع يقولون: حمداً لله على سلامتك، وأنا لا أتذكر شيئاً.

قلتُ:

_ أين أنا؟ ومن أنتم؟ فأجابني الطبيب:

_ أنتَ في المستشفى، وقد نجوت بأعجوبة من حادث أثناء قيادة سيارتك.

_ وأمي أين هي؟

ساد صمت طويل وفهمت...

غبتُ في غيبوبة طويلة، ولم أفق منها سوى بعد ثلاثة أشهر، ولم أعرف حينها ماذا عليَّ أن أفعل، فأمي التي تمثل لي الحياة بأكملها قد رحلت، وكل ما أرى حولي بعدها لا يعدو كونه ظلاماً دامساً.

أخي الوحيد

قال تعالى:
(سنشُد عضدك بأخيك)

ربما كانت هي المرة الأولى التي أشعر فيها بمعنى الأخوة الحقيقة، رغم أنني الأخت الصغرى لوحيد، وكنتُ أرى والدتي تعامله معاملة خاصة لفرط حساسيته التي نعلمها جميعاً، وما إن علمتُ بالحادث الأليم من كريمة أختي، حيث إن إدارة المستشفى أبلغت زوجها وديع، وهو يعمل طبيباً للتخدير بها، ومن ثم انزعجنا أنا وكريمة وهرعنا إلى المستشفى للاطمئنان على وحيد وأمي.

بمجرد وصولنا علمنا أنه حادث شديد ومن الصعب النجاة منه، بدأتُ بالبكاء ثم تبعتني كريمة، وما كنت أرى طبيباً أو ممرضة أو تمرجياً بالمستشفى إلا وكنتُ أستحلفه بالله أن يطمئنني على أمي وأخي، ولكن دون فائدة.

وبعد أكثر من ثلاث ساعات، وجدنا حركة غير عادية بالمستشفى، فقد حضرت الشرطة وبدأت التحقيقات في الحادث، وضابط المباحث بدأ يحاول رؤية وحيد ولكن الأطباء لم يسمحوا له بذلك.

ثم سألنا من منكم من أسرة وحيد؟

فأخبرناه بأننا أختاه وأن وديع زوج أخته كريمة، فطلب منا المثول أمامه غداً؛ لأخذ بعض المعلومات عن الحادث.

لم أكن في حالة تسمح لي بالتفكير، ولذلك تركت وديع يخبره بأنه سيمر عليه غداً في قسم الشرطة، وأنني وكريمة لا نعلم أي معلومات تفيده في القضية.

بعد ذلك خرج طبيب الجراحة من حجرة وحيد، وأخبرنا أنهم استطاعوا السيطرة على نزيف المخ، وأنه مصاب بارتجاج بالمخ، وقد تم إنقاذه وبذل قصارى جهدهم لإنقاذه.

فسألته والدموع تتساقط من عيني عن والدتي، فنكس رأسه وقال:

_ ادعو لها، حالتها خطيرة.

انصرف من أمامنا وبدأنا في النحيب، وتساقطنا على المقعد في الردهة غير قادرتين على الحركة.

قلتُ لكريمة:

_ لا أستطيع أن أتخيل ما يمكن أن يحدث، فقدنا أبي منذ أكثر من عامين والآن أمي حالتها خطيرة، وليس لنا سواها، ماذا سأصنع بدونها.

احتضنتني كريمة وربتت على كتفي ثم قالت:

_ لا تخافي، إن شاء الله سنعبر الأزمة، وستنجو أمي، ووحيد.

_ يا رب.. يا رب ليس لنا سواك.

هدأتُ قليلاً.. ثمّ تناولتُ المصحف من حقيبتي، وبدأت في قراءة القرآن الكريم بصوت هامس وأدعو الله أن يثبتنا في أزمتنا.

رأينا إحدى المرضات أثناء خروجها من حجرة وحيد، فنادتها كريمة وتوسلت لها أن نرى أمي. فرفضت وقالت: خير لكما ألا تروها في هذه الحالة.

فقلتُ لها:

_ أيمكن أن أرى وحيد أرجوكِ هو أخي الأوحد وكل أسرتي.

_لا مانع، ولكن من بعيد ودون كلام.

ركضنا مسرعتين إلى حجرته، واطمأن قلبينا إلى حدٍ ما.

لم أنصرف من المستشفى رغم أن زوجي أتى إليّ ليطمئن على أمي وأخي، وقال إنّ وجودنا لا طائل منه.

ولكني أصررت على البقاء حتى أرى أمي، ولم تجف دموعي.

قضينا الليلة في عذاب تقتلنا الظنون، وفي الفجر حضرت المرضة مسرعة وطلبت منا الدخول لرؤية أمي حيث إنها تطلبنا.

أسرعنا بالمثول بين يديها، وقبلنا يديها ودموعنا تهطل كالمطر، فتكلمت بصوت خافت واهنٍ وقالت لنا:

_ لا تحملا وحيد ذنب الحادث، ولا تلومه إحداكما في يومٍ من الأيام، فهو قضاء الله ولا سبيل لمنعه.

لا تتركي يا رضوى أخاكِ، فهو سيحزن عليَّ كثيراً، كوني له أماً ثانية، أعلم أن كريمة معها أولادها، ولن تستطيع البقاء معه، أما أنتِ فيمكنكِ استئذان زوجك، ولا أظنه يمانع، ولتبقي معهُ لأجلي، لن يتحمل الوحدة من بعدي بسهولة.

بكيتُ كما بكت كريمة، ثم فاضت روح أمي إلى بارئها، وفي خلال لحظات انقلبت المستشفى رأساً على عقب، حيث تم إخبار الشرطة التي مازالت تحقق في ملابسات الحادث لمعرفة المخطئ، لينال جزاءه خاصة بعد وفاة أمي.

لم يفق وحيد في ذلك اليوم، وتم إدخاله العناية المركزة بينما تولى زوجي وزوج أختي إجراءات استخراج شهادة الوفاة والدفن.

كنتُ ذاهلة، لا أستوعب ما يحدث لنا، وأحاول تصديق الوضع الراهن.

فجأة الدنيا بدون أمي، وأخي بالمستشفى بين الحياة والموت، والحياة مظلمة أمام عينيّ. لم يخرجني من صدمتي سوى ثبات كريمة أختي، فقد كانت حقاً من الصابرين، تهدئ من روعي وتمطرني بكلماتها التي تشيع الطمأنينة في نفسي، فتخبرني أن أمي الآن في جنان الخلد، في دار الحق ونحن في دار الباطل، وعلينا أن نصبر ونحتسب، فربما هذا الابتلاء من الله، يختبر به صبرنا، ودرجة إيماننا بقضائه وقدره، وعلينا توخي الحذر حتى لا نرسب في الاختبار.

أخفينا عن وحيد خبر وفاة والدتي كما أمرنا الطبيب، حتى لا تسوء حالته، وكنا نتبادل زيارته بالمشفى بحيث لا تمر ساعة عليه، دون أن تكون إحدانا معه فيها.

حتى خرج من العناية المركزة واستقرت حالته، هنا وافق الطبيب على الإجابة عن سؤاله عن والدته، وهو أول ما فعله حين أفاق.

حين علم بما جرى لها فقد الوعي على الفور، ودخل في غيبوبة استمرت ثلاثة أشهر وأنا في منتهى القلق والضيق، وأخشى عليه. لم يطمئن قلبي سوى بعد إفاقته، وموافقة الطبيب على اصطحابه للبيت بعد أن تم شفاؤه بالكامل.

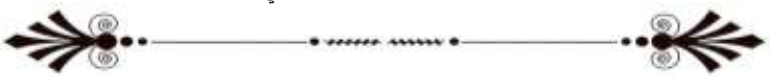

رضوى

لم تكن علاقتي بأختيّ قوية يوماً، ولم أكن أتزاور معهما أو أتقصى أخبارهما الأسرية حتى.

بعد حضوري زفافيهما لم يحدث بيننا أحاديث ودية من القلب أبداً، كانت الكلمات لا تعدو المجاملات، والحديث العادي كحديثي مع زملائي في العمل.

ولكن بعد أن أفقتُ من الغيبوبة، ورأيتُ رضوى وكريمة معي شعرتُ بعطفهما عليَّ، وبأنني أعني لهما الكثير.

عدتُ إلى منزلي مع كريمة وزوجها وديع، ذلك المنزل الخالي من أمي، التي كانت تملؤه نشاطاً وحركة طوال الوقت. خلا عليَّ المنزل لأول مرة في حياتي.

كانت الجدران باردة، وكأنها حزينة على صاحبتها، وكانت الزوايا تنبئ بالوجع، لم أستطع دخول حجرتها، تلك الحجرة التي امتلأت سابقاً بصوتها وضحكاتها، وحوارنا معاً.

كم تكلمنا أنا وهي بداخلها، وكم أبدت خوفها عليّ من الأيام ومن الوحدة.

لم تكن تدرك أنّ الوحدة الحقيقية ستكون بداخلي من بعدها.

ما إن دلفتُ إلى البيت حتى سمعتُ صوتها يرن في أذني (هل عدتَ يا حبيبي، حمداً لله على سلامتك)

لم أتمالك نفسي فتساقطت دموعي بحراً، وعلمتُ أنني لو أستطيع أن أذهب إليها لفعلت. لأول مرة في حياتي أشعر بما يشعر به من يُقدِمون على إنهاء حياتهم بإيديهم، برغم أنني كنتُ أعالجهم من الاكتئاب في الماضي، والآن عرفتُ صعوبة ما يمرون به بحق.

انهرتُ وتساقطتُ كأوراق الشجر في تشرين، وظللتُ أبكي بصوتٍ مرتفع لساعات طويلة. كنتُ أعلم أن البكاء خيرٌ من كتمان الحزن بقلبي، وأنفع له.

لم أشعر بكريمة وزوجها حين غادرا البيت، فقد كنتُ في عالم آخر لا يعلمه إلا الله.

سمعتُ صوت الباب يُفتَح، ودخلت رضوى الشقة تنادي عليَّ: وحيد.. وحيد. لأول مرة في حياتي أنتبه إلى أن صوت رضوى يشابه إلى حدٍ بعيد صوت أمي. جرت نحوي وهي ملهوفة تبكي، وقالت لي:

_ اهدأ يا حبيبي اهدأ.. الموت علينا حق.

_ أعلم، ولكن قلبي هو الذي يبكي، لا تعلمين ما كانت تعنيه أمي لي.

_ أعلم.. أعلم وكلنا ندرك أنك أكثر من سيشعر بالحزن لفراقها، ولكن أنت مؤمن، وهذا قضاؤه، ولا راد لقضاء الله.

_ونعم بالله.

أعطتني بعض المحارم الورقية لأجفف دموعي، وأخبرتني أنها ستترك بيتها وستبقى معي حتى تطمئن عليَّ.

شعرت ببعض الأمان في وجود رضوى، كانت حانية القلب مثل أمي، تواسيني وتذكرني بآيات الله التي تشيع الصبر والدفء في كل كياني.

بقيتُ في حجرتي أياماً طويلة لا أذكر عددها، هاتفي مغلق ولا أرد على أحد، ولم أذهب لعملي لمدة ستة أشهر كاملة. قضيتها جميعاً بين النوم والشرود وقراءة القرآن الكريم.

حتى بعد أن غادرت رضوى كانت تزورني من حينٍ لآخر، وكنتُ أحتاج إلى عطفها جداً، وكأنّني طفل ما زال يحبو، فقد والدته.

كانت صادقة في خوفها عليّ، وشعرتُ أنه ليس لي سواها في الدنيا.

كان أبي قد توفي منذ ثلاثة أعوام، وكان المنزل خالياً عليَّ بعد فراق أمي، لم أفكر في فكرة وفاتها من قبل، وكأن عقلي تعمد أن ينسى الفكرة تماماً حتى لا يرهق نفسه بمواجهتها والاستعداد لها.

ووفاتها فجأة في الحادث كانت بمثابة الضربة على الرأس التي أفقدتني صوابي، فتخبطتُ في تفكيري، ونسيتُ كل ما تعلمته من أسرار النفس البشرية، ولم أفلح في تطبيق شيء منها على نفسي.

وحيد أصبح وحيداً

يا إلهي! هبط عليَّ خبر وفاة والدة وحيد في حادث أليم كالصاعقة، لم أدرِ ما أفعل، كنتُ حينها أنتظرها في منزلي لطلبها لقائي لأمرٍ هام.

وما إن علمتُ أنّ حادثاً قد وقع لها أثناء قيادة وحيد للسيارة، حتى انقبض قلبي، وظللتُ أدعو الله أن يسلمهما، ويطمئن قلبي عليهما.

لم أجد مَن أسأله عن أخبارهما في بداية الأمر، فسألت في المستشفى عن وحيد، وعلمتُ أنه في غيبوبة امتدت لعدة أشهر، وبعد أن أفاق منها، لم يرجع إلى عمله، بل ظل حبيساً بين جدران منزله لعدة شهور أخرى.

وشعرتُ أنه نسيني تماماً، ولكنني تمنيتُ لو استطعتُ أن أقف بجواره في مصابه، لأخفف عنه، ولأكون سنداً حقيقياً له في هذه الظروف.

ولكن كيف؟ لم أرَه منذ ذلك الحين، وظللتُ أشعر بالوحدة بدونه، أخشى عليه من الحزن، وأتمنى لو شاركته فيه.

كنتُ أقضي الليالي الطوال مؤرقة، أتأرجح بين الظنون والأفكار خوفاً ورغبةً في الاطمئنان عليه.

وبعد سؤالي بعض زملائه عنه، أرشدني أحدهم وهو دكتور عادل وجدي إلى أن أخته رضوى هي الوحيدة التي تزوره باستمرار وتبقى معه أحياناً، فطلبتُ منه رقم هاتفها، فاعتذر بعدم معرفته إياه.

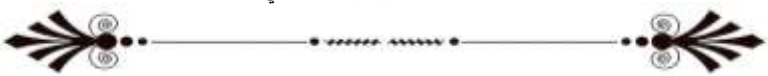

لم يهدأ لي بال، ذهبت إلى العمارة التي يقطن فيها وحيد مع والدته، وكانت والدته ذكرت عنوانها لي من قبل، وسألتُ البواب بعد إلحاح شديد أن يعطيني رقم رضوى لأقدم لها واجب العزاء، حيث أخبرني أنها أعطته الرقم ليتصل بها حال حدوث أي طارئ لأخيها.

حمدتُ الله على أنني عثرتُ في النهاية على خيط يوصلني بأخبار وحيد.

اتصلتُ برضوى، واستأذنتُها في زيارتها من أجل العزاء، فأذنت لي.

فقمتُ بزيارتها، وحين دخلتُ إلى شقتها، ورأيتها لأول مرة، لاحظتُ الشبه الشديد بينها وبين والدتها، حتى صوتها كان يشبه صوت والدتها كثيراً.

أظهرتُ لها ما في قلبي من حزن على ما حدث، وسألتُها عن حال وحيد فأطرقت، ثم قالت:

_ هو شارد في عالم آخر، لا أدري كيف سيعبر تلك الأزمة.

_ صدقيني سيعبرها، هو قوي وصلب، كم مرت عليه من خطوب.

_ ولكنني أخشى على عقله من كثرة التفكير، لقد قرأتُ عمن يستسلمون للأحزان فيصيبهم الجنون لفقدان أحبتهم، وربما يتوفون أحياناً من جراء ذلك.

_ أرجوكِ لا تذكري ذلك، تفاءلي يا رضوى، سيقف الله بجانبه، فهو يرعى الله في كافة شؤون حياته.

ثم نظرت لي ملياً وقالت:

_ أنتِ يمكنكِ مساعدته.

_ كيف؟

_ لتأتي معي لزيارته والكلام معه، ربما استطعتِ إخراجه مما هو فيه.

_ لا مانع عندي المهم أن أطمئن على أحواله.

فنظرت لي نظرة لم أستطع نسيانها بعد ذلك، فهمتُ منها أنها ترى ما في قلبي نحو وحيد بادياً على قسماتي.

اتفقنا وتقابلنا في اليوم التالي، ثم ذهبنا إلى منزل وحيد، فور خروجنا من المصعد فتحت رضوى باب شقته، واستأذنتها في أن تدخل هي أولاً ثم تناديني على سبيل استطلاع حاله والتأكد من موافقته على مقابلتي، فوافقتُ على ذلك.

مرت ثلاثة دقائق، ثم عادت إليَّ بوجهٍ بشوش وقالت:

_ تفضلي حبيبتي، لستِ غريبة، أمي حدثتني عنكِ كثيراً.

رأيته جالساً أمام مكتبه، هي المرة الأولى في حياتي التي أدخل فيها إلى منزله، كان منزوياً يكسو وجهه الحزن، هزيل الجسد، وقد أطلق لحيته فزادت شكله غرابة بالنسبة لي.

لملمتُ أشلاء نفسي بداخلي، واستجمعتُ شجاعتي وقلتُ له:

_ مساء الخير.

_ مساء الخير. أهلاً بكِ

_ آسفة على الإزعاج، ولكنني أردتُ تقديم العزاء لكَ، البقاء لله.

_ الدوام لله، شكراً لكِ لأنكِ تذكرتِني.

نزلت كلمته على قلبي كالنار فاستعرت روحي بالحزن، وسالت دموعي.

ثم قلتُ له:

_ ماذا تقول؟ هل نسيتُك حتى أتذكرك؟ لم تغب عن بالي لثانية، كنتُ قلِقة عليك جداً، ولا أعرف كيف أصل إلى أحد يطمئن قلبي عليك، أنا لا أنام بسببك.

_ كل هذا؟ وأنا لا أعلم؟

_ صدقني لو كنتُ أعلم كيفية الوصول إليكَ لفعلتُ، كما أن هاتفك مغلق طيلة الوقت.

_ فعلاً لقد نسيته تماماً، لم أمسكه منذ الحادث.

_ ألف سلامة لكَ، اعتنِ بنفسك، الحزن لن يرجع شيئاً.

_لمن سأعيش بعدها!

_ لأجلي أنا.

مرت دقائق من الصمت قطعها صوت رضوى وهي تقول:

_ أعددتُ الغداء هيا يا وحيد هيا يا سلوان هذا بيتك، ولا تحتاجين إلى أن أردد عليكِ ذلك.

فقلتُ بصوتٍ خفيض:

_ هيا يا وحيد سأتناول الغداء معكم.

فنهض من مقعده، وظهرت عظامه البارزة من خلف قميصه، وكأن وزنه تناقص أكثر من النصف، وتغيرت قسماته، فصار أكبر سناً.

جلسنا على المائدة جميعاً، ورضوى تحاول أن تتحدث لتجذب وحيد للاندماج معنا في الحديث ولكن هيهات.

ازدرد بعض اللقيمات لشعوره بالإحراج، ثم انصرف من حجرة المائدة. وأنا استأذنتُ، وطلبت من رضوى أن تتصل بي كلما أمكن لتطمئني على حاله.

لم أستطع النوم الهادئ بعدها لأيام طويلة سوى بالمنوم.

كنتُ أعلم أن من يستسلم للحزن لن تكون عاقبته جيدة، بل قد يؤدي به الحال إلى الوفاة لا قدر الله.

فكنتُ أدعو الله أن يلهمه الصبر، ويأخذ بيده إلى جادة الطريق بعيداً عن الأحزان.

لم أتوانَ في السؤال عليه يومياً، ودعتني رضوى لزيارته مرة أخرى، وأخبرتني أنه بدأ يغير من تصرفاته، ويستعيد نفسه شيئاً فشيئاً، فحلق لحيته وبدأ يفتح هاتفه ويرد على أصدقائه، كما طلَبتْ مني إقناعه بالعودة إلى عمله ليتشاغل به عما مر به من أحداث.

وبالفعل لبيتُ دعوتها، وزرته للمرة الثانية معها، كما اصطحبتُ هند ابنتي خلال الزيارة، ورحب بها وابتسم لها، ثم فاتحتُه في أمر عودته إلى عمله، فنظر إليّ بأسى وقال إنه سيعود إليه الأسبوع القادم إن شاء الله.

اطمأن قلبي عليه كثيراً بعد هذه الزيارة، وبدأت أهدأ وأنام.

العودة

بعد زيارة سلوان لي بدأتُ أسترد نفسي، وبدأ قلبي في النبض بشدة مرة أخرى كلما رأيتها، كانت بمثابة الرابط بيني وبين العالم، شعرتُ بأنني لستُ وحدي، وبأنه يوجد بالعالم من يحنو عليَّ بعد أمي الحبيبة، باختصار شعرتُ بمدى حبها لي، وتعافيتُ شيئاً فشيئاً، تذكرتُ أمي وهي تتمنى أن أتزوج، وتقول لي إن هذا ما سيطمئنها عليَّ.

لقد كانت تعلم ما ينتظرني إذا فارقت العالم وتركتني وحيداً.

اليوم فقط فهمتُ إلحاحها عليَّ في هذا الأمر.

استقبلني زملائي في العمل بترحاب شديد، وبالكثير من العطف، وبدأتُ أستقبل المرضى من جديد وأستمع إلى معاناتهم ولكنِّي الآن أصبحتُ أشعر بهم أكثر من ذي قبل، فقد مررتُ بنفسي بما يمرون به عند الفراق، وما يسبب انهيارهم وسقوطهم في بئر الاكتئاب.

مرت عليَّ سلوان وهي باشة الوجه، ملهوفة العينين، فسألتني عن حالي، وعما أشعر به حاليا، فحمدتُ الله.

قالت وهي دامعة العينين:

_ أعلم مدى ارتباطك بوالدتك.

_ كيف علمتِ؟

_ والدتك كانت بمثابة الأم لي أيضاً، كنا نتحدث هاتفياً يومياً في الفترة الأخيرة، هي من أخبرتني.

_ عجباً لها، لم تذكر لي من قبل أنكما كنتما على تواصل.

_ ربما لم تشأ أن تشغلك بأمور كهذه، وهي تعلم أن أهم شيء في حياتك هو عملك.

_ نعم بالفعل عملي كان الأهم عندي من قبل.

_ كان؟ والآن؟

_ لا. أصبحتُ أدرك أن البشر في حياتنا هم الأهم، فمَن يذهب منهم لا يمكن أن يعود.

_ صدقت. العلاقات الإنسانية هي أكثر ما يؤثر فينا حقيقة، ولا ندرك ذلك إلا بعد العديد من تجارب الحياة القاسية.

_ بالمناسبة. أشكركِ لأنكِ وقفتِ بجانبي في محنتي.

احمر وجهها من الخجل، وعضت على شفتها السفلى ثم قالت:

_ لا داعي للشكر، فأنا لستُ غريبة عنكم، وقد جمعنا الله بعد طول فراق، وصارت والدتك رحمة الله عليها مثل أمي، والله وحده أعلم بمدى حزني وانكساري عليها.

مرت عدة أيام ثم طلبتُ من رضوى أختي أن تفاتح سلوان في موضوع الزواج، وتطلب منها تحديد موعد لزيارة أسرتها لكي أتقدم لخطبتها.

كان الموعد المقرر هو يوم الجمعة، ولم أستطع النوم حتى جاء ذلك اليوم.

ذهبتُ مع رضوى وكريمة أختيّ لخالة سلوان وأنا أحمل باقة من أجمل الزهور التي أعرف تمام المعرفة أن سلوان تفضلها، واستقبلني والدها وخالتها بترحاب شديد، وقال إنه سيرد علينا بعد يومين.

مر عليَّ اليومان وأنا لا أدري صباحي من مسائي، مكفهر الوجه، أحمل بين قسماتي دلائل القلق، وعدم الراحة.

ثم هاتفني والد سلوان ليعلن موافقته، وموافقتها على إتمام الخطبة التي وعدني أنها لن تزيد على شهر، ريثما يتم تجهيز منزل الزوجية.

أعددنا كل شيء سريعاً كما تمنينا، وكما كنت أتوقع في خيالي، كان أهم ما يشغلني أننا سنعيش معاً، ولن يفرقنا أي إنسان في الوجود.

كانت هند متخوفة من زواجي بوالدتها في البداية، ولكنني طمأنتها، وجعلتها صديقة لي، فكنتُ أحضر إليها القصص واللعب وأجلس لألون معها، وأصطحبها أحياناً في جولات سياحية مع سلوان لزيارة الأماكن الأثرية التي كانت جديدة عليَّ أنا أيضاً.

تعودَت البنت على حياتها الجديدة، وتوسمت خيراً في زواجي أنا وأمها، ولم يعد هناك ما ينقصنا سوى أن تمضي الأيام ويجمعنا القدر في منزل واحد وقد كان.

فقد علمتُ أن الأيام لا تمر عندما نفقد أحباءنا، ولكنها تمر سريعاً حين نعيش معهم.

تمت

مؤلفات الكاتبة

المؤلفات الورقية الخاصة بالكاتبة د.زينب حلبي:

١_ ديوان فراق الروح
٢_ ديوان زمان غادرنا
٣_ كتاب رسائل من القلب
٤_ ديوان كبرياء وحنين
٥_ كتاب صرخة ألم
٦_ رواية هدير الأمواج
٧_ كتاب أحاديث النساء
٨_ رواية مايا ومملكة الغار
٩_ مجموعة قصصية جريمة العجوزة
١٠_ كتاب طاقة نور وهداية
١١_ رواية أروى في الشرق
١٢_ مجموعة قصصية بعنوان تنحي الحب
١٣_ مجموعة قصصية بعنوان مَن قتلني
١٤_ ديوان شعر قلتُ وداعا
١٥_ مجموعة قصصية بعنوان عيون القلب
١٦_ كتاب هو رأيي.... وإن خالفتموه
١٧_ كتاب عالم من الظواهر الخارقة

بالإضافة إلى الكتب الإلكترونية:

١_ مجموعة قصصية بعنوان لحظات حرجة
٢_ كتاب شعراؤنا من هم
٣_ مجموعة قصصية بعنوان كان ياما كان
٤_ كتاب خواطر مرت بالخاطر

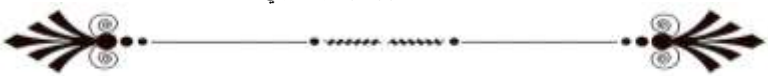

محتويات الرواية

الإهداء..... 4
بناء الوعي 5
على هامش الحياة..... 11
أبي الغريب..... 13
أمي. المثالية التي لا تكتمل 18
وحيد بمعنى الكلمة..... 22
تدهور وانهيار 24
قلقٌ قلق 29
سُلوان 31
وحيد 36
غادرة..... 40
أحببته فعلاً..... 42
ابني الحبيب 49
هيستريا 55
سجن قارا 67
ابني عاد إلى مصر 74

وخزٌ في قلبي..... 77
حادث ومأساة 84
ذكرياتي..... 95
سلوان 105
حادث أليم 109
أخي الوحيد 111
رضوى 116
وحيد أصبح وحيداً..... 119
العودة..... 124
مؤلفات الكاتبة 127
محتويات الرواية 128

رواية
أيام لا تمر
د. زينب حلبي
الطبعة الأولى
1445 هـ 2024 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.